خصائص البيان بـ (الإيتاء والإعطاء)

فى القرآن الكريم دراسة بلاغية

بقلم الدكتور/ السيد محمد السيد سلَّام

المدرس بقسم البلاغة والنقد

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على من أوتى الكتاب ومثله معه، وأعطى ما لم يعط نبى قبله، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فكتاب الله- عز وجل- هو الكتاب الذى لا تنقضى عجائبه ولا تنفد عطاياه، بل تتجدد بتجدد الأزمان، وتختلف باختلاف عطاء الرحمن، لأنه لكل جيل ولكل عصر، ويحسن المعنى فيه كلما ازداد التأمل حسنا...

وتلك دراسة موجزة تبحث عطاء مادتين من هذا الكتاب المعجز يظن بهما أنهما مترادفتان وشتان ما بين معنيهما...

هاتان المادتان هما (آتى وأعطى)، وآتى بمعنى أعطى، وأعطى بمعنى ناول، والأول يكون فى المعانى، والثانى يكون فى الأعيان، والمعانى لها خصائصها، والأعيان لها فضائلها...

والفرق بين عطاء المادتين هو لب هذه الدراسة من منطلق دراسة الشواهد، ليست منعزلة عن سياقها بل متآلفة معه متماسكة به تماسك البناء لا يقوى آخره حتى يقوى أوله، مع مراعاة الإيجاز الذى لا يخرج البحث عن طبيعته، ولا يتجاوز به حد مراده.

وانتهيت من ذلك إلى بعض نفائس المعانى التى توحى بها السياقات حين

تتقارب فى الظاهر، وتتباين بعد التأمل والنظر، ليكون لكل منها مقامه الذى يوائم عطاءه.

ولن يستطيع بحث مّا أن يكشف عن كل الفروق المقصودة، ولا سيما إذا كان ذلك فى كتاب يتجدد عطاؤه بتجدد كل عصر... ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله...

وقد حاولت فى هذه الدراسة: المقارنة بين شواهد المادتين، ومراد التعبير بهذه هنا، وتلك هناك، ووجه ذلك مع بيان الأغراض التى جرى فيها التعبير بالإيتاء، والتى جاء فيها التعبير بالإعطاء، والمقامات التى يرد فيها كل منهما...

ولكثرة شواهد الإيتاء صنفتها باعتبار المؤتَى، وابتدأت بإيتاء الكتاب لكونه أعظمها ومفتاحها، ثم الآيات، ثم العلم والحكمة... إلخ وانتهيت بإيتاء الحقوق وبينت أنه ليس الإيصال هو معناها وإنما مقصدها أعظم من ذلك، ومن ثم عبر معها بالإيتاء دون الإعطاء...

وجرت شواهد الإعطاء على طريق الموازنات بين كل ذلك، لذا أجملت فى نهاية البحث أغراضها، وختمت بموجز بعض تلك الفروق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

مدخل:

بناء المادة ودلالتها اللغوية

لا ريب أن بناء المادة أصل فى الدلالة على معناها من جهة الصوت بما له من تأثير فعّال على اختلاف درجته من مادة لأخرى. ومن جهة مخارج الحروف، وصفاتها التى توحى بدرجات القوة فى الدلالة وتساعد على تصوير المعانى.....

وأجراس الكلمة وأنغامها عامل قوى فى تحديد منزلتها، وكل هذه مؤشرات تسبق جهة البيان التى هى مناط الدرس.

ومن ثم نجد أن اختلاف الصوت يتبعه اختلاف فى الأداء، فصوت الهمزة فى (آتى) يختلف عن صوت العين فى (أعطى) وهو المقابل له، وما يخرج من أقصى الحلق (الهمزة) ليس كالذى يخرج من وسطه (العين) وقوة الدلالة تتوارى وراء قوة الأداء، وصفاتهما توائم ذلك، فإنهما يتفقان فى الجهر والانفتاح، ويختلفان فى الشدة، فالهمزة شديدة والعين بين الشديدة والرخوة، وبذلك تتجلى قوة الهمزة...

وكذلك (التاء- والطاء) يتفقان فى المخرج (بين طرف اللسان وأصول الثنايا) وفى صفة الشدة، ويختلفان فى أن (التاء) مهموسة ومنفتحة، و (الطاء) مجهورة ومطبقة، والهمس الذى فى التاء يدل على سهولتها ونفاذها فى أعماق المعانى وتعلقها بالدواخل...، والجهر الذى فى الطاء يدل على الظهور والفخامة، وذلك أقرب إلى الحس منه إلى المعنى، وهو ما نلحظه فى شواهد الإعطاء خلال الدراسة إن شاء الله.

ومن هنا يتجلى التقارب بين المادتين مع اختلاف عطائهما، وليس أدل على ذلك من المعنى اللغوى لهما:

فالإيتاء: إعطاء بسهولة، كما أن الإتيان هو المجىء بسهولة، وهو أصل المادة

قبل دخول الهمزة التى بها تَغير المعنى[١].

والإعطاء: المناولة، والعطو (أصل المادة) التناول، يقال: عطوت الشيء تناولته باليد، والتعاطى: التناول والجراءة على الشيء[٢]، وهنا لم يتغير المعنى بدخول الهمزة لتعلقها بالأمور الحسية، وسيأتى خلال البيان أن كلًا منهما لا يصلح فى موضع الآخر، لأمور تتعلق بالسياق والقصد ومنها مثلا: أن الإعطاء قليل بجانب الإيتاء، فـ (آتيته المال) أقوى وأعظم من (أعطيته المال)؛ لأن الثانى مجرد مناولة وإيصال، أما الأول فالدافع المعنوى فيه هو الأصل، وله تعلق بالشعور ويشترط فى قبوله: الرضا، والإخلاص. ومعنى السهولة ناشيء من ذلك أيضًا، ولذلك خُصت الزكاة والصدقات وسائر الحقوق فى القرآن بالإيتاء، وسيأتى بيانه.

والإيتاء يعبر به فى: الأمور الحسنة العظيمة الشأن، وقلما يعبر به فى نقيض ذلك، وهو قوله تعالى:

﴿...**قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابًا ضعفا من النار**﴾ (الأعراف ٣١) ﴿...**وما آتيتم من ربًا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله...**﴾ (الروم ٣٩) ﴿...**ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها...**﴾ (الأحزاب ١٤) هذا على قراءة المد، بمعنى لأعطوها السائلين، أى لم يمتنعوا منها، أى لو قيل لهم كونوا على المسلمين لفعلوا ذلك، وهو الاختيار، لأن الأكثر عليه وهو الأبين فى المعنى[٣]. وعبر بالإيتاء لبيان أن ذلك سهل ميسور عليهم وهو معنى قوى. وقوله تعالى ﴿...**ربنا آتهم ضعفين من**

---

(١) (آتى) نحو (آمن) أصلها (أأتى) أبدلت الهمزة من جنس حركة ما قبلها ألفا فصارت آتى بمعنى أعطى فهى من الثلاثى المزيد بحرف، وهى قبل الزيادة أتى بمعنى جاء فلما زيدت الهمزة وأبدلت صارت آتى بمعنى أعطى.

(٢) ينظر مادتى (أتى- وأعطى) فى التهذيب، لسان العرب، القاموس المحيط، المفردات للراغب.

(٣) ينظر كتاب: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكى بن أبى طالب القيسى ٢٥/ ١٩٦- تحقيق د/ محى الدين رمضان مؤسسة الرسالة ط ٤/ ١٩٨٧م.

العذاب...﴾ (الأحزاب ٦٨) أى اجعل العذاب يسيل عليهم سيلا، ويتناسب ذلك مع (ضعفين) و (والعنهم لعنًا كبيرًا) وهذه ومضات من معنى المادة.

أما الإعطاء، فيؤدى معنى الإيصال والمناولة كما سبق، ويكون فى الحسن والقبيح، والكثير والقليل، والجهة الحسية هى البارزة فيه، بيّنه أبو هلال بقوله:

الإعطاء: اتصال الشيء إلى الآخذ له، ألا ترى أنك تعطى زيدًا المال ليردّه إلى عمرو، وتعطيه ليتّجرَ لك به (٤).

ولا يشترط أن يكون ذلك فى النافع أو الضار، المقبول أو غير المقبول، بل كثيرًا ما يأتى المقابل للفظه أمرًا قبيحًا، قال تعالى ﴿**أفرأيت الذى تولى وأعطى قليلا وأكدى**﴾ (النجم ٣٤) حيث قوبل العطاء القليل بقطعه وإمساكه. وقوله تعالى ﴿**فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى**﴾ (الليل ٥).

حيث قوبل: (أعطى) بـ (بخل)...

وفى سورة الكوثر: نظير العطاء العظيم للنبى- صلى الله عليه وسلم- البغض الشديد لمن شانه وهو قطع الأثر والخير ﴿**إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر**﴾. وقوبل عدم العطاء بالسخط فى قوله تعالى ﴿ **ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون**﴾ (التوبة ٥٨)

وقوبل العطاء الدائم للذين سعدوا بالزفير والشهيق فى النار للذين شقوا، فى قوله تعالى ﴿**فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعّال لما يريد وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ**﴾ (هود ١٠٨).

---

(٤) الفروق فى اللغة ١٦١ دار الآفاق الجديدة بيروت ط ٥/ ١٩٨٣م.

فالإيتاء أقوى من الإعطاء، وإن كان بمعناه «وفرق بين أن يكون فى الشىء معنى الشىء وبين أن يكون الشىءُ الشىءَ على الإطلاق»[٥].

ففى الإيتاء تمكين وإلتزام...، لما كان الأمر كذلك أوثر التعبير بالأول فى أمور الدين والرسالة والرسل، تلك التى تعم النفع فى الدارين، بخلاف شواهد الإعطاء التى لم تتجاوز الأربعة عشر شاهدًا فى القرآن الكريم كله، وجاء بعضها فيما يتعلق بأمر الآخرة فقط، وهى:

(١) آية هود السابقة ﴿**وأما الذين سعدوا..**﴾.

(٢) وآية النبإ ﴿**... جزاءً من ربك عطاء حسابا**﴾ .

(٣) وآية الضحى ﴿**... ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾.

وهذا الوعد فى الآخرة- على الأرجح- بدليل المقابلة بين الآخرة والأولى ﴿**وللآخرة خير لك من الأولى**﴾ والأولى هى الدنيا، ونص كثير من المفسرين على أنه فى الجنة، والجمهور على أنه الشفاعة ودَلَّلَ الإمام الرازى على أن القول بالشفاعة متعين[٦]...

(٤) وآية الكوثر.

وكما أن قوة الإيتاء تبرز فى عظمة الشىء الذى يعبر فيه بمادته، فكذلك تبرز فى غزارة المعانى والأغراض التى يساق لها فى كتاب الله، وتعلقها بالرضا والقبول، واصطحابها للقوة فى (المؤتى والمؤتَى) فإنه يعبر بتلك المادة فى: الكتاب، والآيات، والبينات، والرسالة، والرسل، والملك، والحكمة، والعلم، والتقوى، والرحمة، والحسنة، والأجر، والكفل، والنصيب، والمال، والزكاة، والحقوق، والحجة، والرشد، والهدى، والموثق، والفضل والسلطان، والثواب، والخير، والحرث، والأُكُل، والعذاب، والفتنة، والربا والناقة، والذكْر، والنقير فى

---

(٥) ينظر دلائل الإعجاز ٣٢٩ تحقيق الشيخ/ محمود شاكر.

(٦) ينظر مثلًا: تفسير الرازى ٣١/ ٢١٣، وابن كثير ٤/ ٥٢٣ وروح المعانى ٣٠/ ٢٠٤.

قوله تعالى ﴿... **فإذا لا يؤتون الناس نقيرًا**﴾ (النساء ٥٣) من باب المبالغة فى بيان شدة البخل... وكلها أمور عظيمة شاملة لما يتعلق بالدنيا والآخرة...

وقد جاء التعبير بمادة (الإيتاء) بالماضى والمضارع والأمر والمصدر فى خمسة وستين ومائتى موضع من القرآن الكريم، وكان ذلك فى سبع وخمسين سورة منه، بخلاف الإعطاء الذى تكرر بماضيه ومضارعه ومصدره أربع عشرة مرة لا غير... وسنحاول بمشيئة الله- تعالى- استنباط المعانى والأغراض البلاغية لكل من المادتين خلال دراسة الشواهد وتحليلها حتى تتجلى الفروق والخصائص التى يوحى بها كل سياق، ونستهل ذلك بشواهد:

[إيتاء الكتاب]

نلحظ أنه جرى التعبير فيها بـ (آتَيْنَا، وأُتُوا، ويُؤْتِيه، وَآتَانِىَ، وأُوتِىَ).

وما جاء بضمير العظمة (آتينا) كان فى شأن الأنبياء، والصالحين الذين يعلمون أنه الحق، والذين يفرحون به، والذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وجاء بعضه فى معرض الامتنان، وبيان النعمة، وبعضه فى معرض التسلية لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- والتثبيت للمؤمنين.

أما (أُوتوا) فعُبِّرَ بها فى شأن من لم يكن منهم قبول أو تهيؤ لملاقاة هذا الكتاب والعمل بما فيه... فكان فى التعبير دلالة على التقليل من شأنهم، ويأتى ذلك فى معرض التحذير، والتسلية، التحذير فيما كان إخبارًا عامًا عن شأن السابقين، والتسلية فيما كان خطابًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما التعبير بـ (يؤتيه، وآتانى) فجاء فى معرض الدفاع عن الأنبياء ودحض افتراءات المفترين.

والتعبير بـ (أوتى) بالبناء للمفعول مع (الكتاب) يتخلص لبيان النعيم أو العذاب يوم الجزاء...

ومن ثم يتبين أن شواهد إيتاء الكتاب على اختلافها هذا تأتى لخمسة

أغراض نجملها أولًا ثم نفصل القول فيها، وهى:

١- الامتنان وبيان النعمة أو الإرشاد إليها...

٢- التحذير والتنبيه.

٣- التسلية والتثبيت.

٤- دحض الافتراء...

٥- بيان النعيم أو العذاب فى الآخرة.

هذا وإليك التفصيل والبيان:

أولًا: ما جاء فى معرض الامتنان وبيان النعمة:

كان ذلك كله فى شأن الأنبياء والصالحين بضمير العظمة، وأول ما يطالعنا منه قوله تعالى ﴿**وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون**﴾ (**البقرة ٥٣**) جاءت هذه الآية الكريمة فى مقام تعديد النعم على بنى إسرائيل، فبعد أن أمرهم بالإقرار بنعمه فى قوله سبحانه ﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين﴾ شرع فى توضيحها بـ: إنجائهم من آل فرعون، ومن الغرق حين افترق بهم البحر، والعفو عنهم بعد اتخاذهم العجل، ثم إيتاء موسى الكتاب بقصد اهتدائهم... إلخ هذا البيان.

ولما كانت هذه النعمة أعظم شىء فى حياة البشرية عُبر معها بلفظ الإيتاء وختمت الآية بقوله سبحانه ﴿**لعلكم تهتدون**﴾ وهذا «هو محل المنة؛ لأن إيتاء الشريعة لو لم يكن لاهتدائهم، وكان قاصرًا على عمل موسى به لم يكن فيه نعمة عليهم»(٧).

فإيتاء الكتاب والتأييد بالمعجزات من أعظم النعم المعنوية التى يليق بمقامها هذا التعبير، يستوى فى ذلك القول بأن (الكتاب) هو التوراة، والفرقان هو ما

---

(٧) التحرير والتنوير للعلامة ابن عاشور ١/ ٤٨٠ الدار التونسية.

أوتى موسى من اليد والعصا وسائر الآيات، وسميت بذلك لتفريقها بين الحق والباطل، والقول بأن التوراة كتاب منزل وفرقان يفرق بين الحق والباطل، ويكون من عطف الصفات، كقوله تعالى ﴿**ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءًا وذكرًا للمتقين**﴾ (**الأنبياء ٤٨**)، فالمقصود: الكتاب الجامع بين هذه الصفات(٨).

ومن هنا يثبت القول بأن الإيتاء إعطاء بسهولة، ويعبر به فى الأمور الجليلة العامة النفع، تتحقق العظمة فى: (الكتاب) وما يتبعه من صفات أو معجزات، والسهولة فى: انسيال هذه النعم عليهم، ووضعها فى هذا الترتيب المتناسق، فما إن طلب منهم تذكُّر نعمه حتى انحدر بيانها عليهم انحدار السيل من عل: النجاة، والعفو، والكتاب، والتوبة، والبعث بعد الموت، أى بعد أن أخذتهم الصاعقة (قيل: كان هذا الموت بمنزلة النوم أو الإغماء) وإظلال الغمام عليهم وإنزال المن والسلوى... إلخ هذه النعم التى تتابعت أحيانا، وجاءت على هيئة حوار أخذ وردٌّ أحيانًا أخرى، ثم أخذ عليهم الميثاق بعبادة الله والإحسان وعدم سفك الدماء، وهكذا تفرقت بين سياق الآيات إلى أن عاد الكلام على بدئه فى الآية السابعة والثمانين من السورة فقال سبحانه: ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون**﴾.

وإيتاء موسى الكتاب إنما هو إلزام وتكليف بأداء الرسالة لا يصلح معه التعبير بالإعطاء الذى هو مجرد إيصال أو مناولة، فكل تعبير له مقامه الذى يناسبه... المهم أنه- سبحانه- حين أراد تعديد نعمه قال: ﴿**وإذ آتينا...**﴾ وبعد أن تبين جحودهم بتبديل القول الذى قيل لهم وقتلهم الأنبياء بغير حق، ونقضهم العهود والمواثيق، واستحقاقهم العذاب بأفعالهم بعد كل ذلك قال هنا

---

(٨) ينظر الكشاف ١/ ٢٨١ وتفسير الرازى ٣/ ٨٣.

﴿ولقد آتينا﴾ بحرف التحقيق الذى يوحى بقوة إعراضهم وتوليهم واستحقاقهم العذاب الخالد، وشدة الإنكار عليهم باستكبارهم وتكذيبهم، وقتلهم الأنبياء.

وتوالت الرسل بعده تترى تحمل منهجه إلى أن جاء سيدنا عيسى- عليه السلام- ﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات﴾ وهذا تذكير آخر بنعم الله وأنه لم يتركهم هكذا دون رسل تكشف لهم منهج الله فى الأرض.

ونلحظ أنه عبر هنا بالبينات مع سيدنا عيسى دون الكتاب كشأن سيدنا موسى؛ ليُدَل على الدلائل الجديدة البينة التى جاء بها، لأن الرسل الذين جاءوا بعد موسى فى قوله ﴿وقفينا من بعده بالرسل﴾ لم يأتوا بجديد فى هذا الشرع، فخولف بذكر البينات دون الكتاب لإثبات هذه الدلائل والمعجزات التى لم تكن من قبل وهى: إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص... إلخ.

والتعبير بالإيتاء بما فيه من تلك العظمة المعنوية الراسمة لما يستجد فى الحياة، يتناسب- أيضًا- مع البينات؛ لأن البينة برهان وحجة ودليل، حدها العلامة البقاعى بأنها «ما ظهر برهانه فى الطبع والعلم والعقل بحيث لا مندوحة عن شهود وجوده»(٩).

ولفظ الإعطاء بمعناه مهما بلغ من عظمة وفخامة تبينها حروفه لن يرقى إلى درجة الإيتاء، فالمعانى فى شواهدهما تفصح عن قلته بجانب مقاصد الإيتاء المشحونة بعمق المعانى وتدخلها فى أعماق القلوب، وتعلقها بالدواخل، وانطلاقها منها، لذلك لم يعبر بلفظ الإعطاء مع ما يتعلق بالتكاليف؛ لأنه مجرد إيصال ومناولة، وهذه أمور تحتاج إلى قوة معنوية، وبناء المادة يتوافق فى ذلك مع السياق، فالحرف المهموس (التاء) الذى توسط مادة الإيتاء يوحى بهذا الخفاء الذى هو لب المعانى، والوصول إلى مقاصد الأمور المعنوية يحتاج إلى تغلغل فى بواطن البيان، ولا يمكن الحكم عليها بالقلة، على خلاف الحرف المجهور (الطاء)

---

(٩) نظم الدرر.. ٤/ ٦ دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة ط٢- ١٩٩٢م.

الذى توسط مادة الإعطاء، فإنه يوحى بالأشياء الظاهرة عظيمة كانت أو قليلة، وكلٌ يناسب موطنه... والمعانى أعم وأعظم من الأعيان، لذا عُبر باللفظ الذى يدل عليها مع الأمور التى ترسم منهج الحياة، فهى تحتاج إلى دقة أداء وقوة تلقى؛ لأنها تكاليف، ومن ثم عبر بلفظ (القوة) مع بعض شواهد الإيتاء، دون الإعطاء، وذلك فى قوله تعالى تعقيبا على هذا البيان السابق بما فيه من نعم يقابلها جحود، وكفر وعصيان: ﴿**وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين**﴾ (البقرة ٩٣).

فبلوغهم مبلغا عظيما فى التغافل والتعامى عن نعم الله واستبدالهم حب الإيمان بحب العجل يحتاج إلى قوة ردع وزجر، يتجلى ذلك فى التعبير بألفاظ (الأخذ- الميثاق- الإيتاء- القوة) وكلها توحى بأن المراد خذوه بقلوبكم وعقولكم، لأنه مياق يستدعى تلك القوة، ولفظ الإيتاء أليق بها، لما فيه من قوة خفية تنفذ إلى الأعماق، وترتبط بالشعور...

ومضى نظير هذه الآية فى سياق النعم السابقة قبل الانغماس فى هذا الضلال والتمادى فيه، ولذلك ختمت بقوله سبحانه ﴿**لعلكم تتقون**﴾، وفيها يقول سبحانه: ﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون**﴾ (البقرة ٦٣. ونظيرها فى الأعراف ١٧١).

ولما لم تحدث تلك التقوى التى هى مراد هذا التذكير، نَعَتْ هذه الآية الثانية عليهم موقفهم ﴿**قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين**﴾.

وهكذا تجرى أمثال هذه الشواهد التى عبر فيها بضمير العظمة مع الإيتاء فى الأمور الرفيعة القدر، ومازال الحديث بنا جاريًا فى شواهد بيان النعم والحث على التهيؤ لها، ومراقبة الله فيها...

قال تعالى ﴿**ولقد مننا على موسى وهارون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين وآتيناهما الكتاب المستبين**

وهديناهما الصراط المستقيم وتركنا عليهما فى الآخرين سلام على موسى وهارون﴾ (الصافات ١٤: ٢٠) لما جاء إيتاء الكتاب وسط هذا الفيض من المنن عبر معه بـ (المستبين) دون البين أو المبين، تدليلا على وضوح بيانه وقمة بلاغته، وأنه أرقى هذه النعم لما فيه من حجج باهرة، وآيات عظيمة تعم النفع كله وتدفع الضر كله، ولم نألف التعبير بالإعطاء فى مثل هذه النعم المتكاثرة المتحدرة فى بيانها تحدر السيل... ومن ثم لم يصلح التعبير به ههنا؛ لأنه يكون عطاء محددًا أو معينا، كما توحى شواهده.

أما قوله تعالى ﴿... **وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾** (هود ١٠٨).

فإن كان العطاء غير مقطوع إلا أنه محدد بزمان وهو الآخرة ومكان وهو الجنة، وإن كان سببه يرجع للعمل بكتاب الله فى الدنيا، ووصفه بأنه (غير مجذوذ) يوافق تبتلهم فى الدنيا وانقطاعهم لله- عز وجل- والجزاء من جنس العمل.....

أما التبعيض مع الإيتاء فى قوله تعالى ﴿**ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين﴾** (آل عمران ١٤٥). فلا ينافى القوة والعظمة التى أطلق القول بها؛ لأن السياق سياق جهاد، وهو باب كبير، فالذى أراده للغنائم سيكون له منها نصيب، وهو نفع عظيم بالنسبة إليه؛ لأنه جاء بعد كدٍّ وكفاح، لذا قال (نؤته منها...) ولم يثبت حرمانه من الآخرة- كما سيأتى فى غير هذه الآية- بل قال «وسنجزى الشاكرين» لبيان أن ثواب الآخرة أعظم للذى كان جهاده خالصًا، عازفًا عن شهوات الدنيا، وهذا هو العطاء الأعظم الذى يبين منزلته فى الدارين، يناسبه هذا التبشير الذى ختمت به الآية، وهذا فى نظرى- يشبه الذى قال ﴿**ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾** لأنه جاهد وكابد وألقى بنفسه فى مهاوى التمحيص والابتلاء وكان مُعرضا للقتل لولا أنه ﴿**وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا﴾**.

أما قوله تعالى ﴿**فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق**﴾ (البقرة ٢٠٠) وقوله تعالى: ﴿... **ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب**﴾ (الشورى ٢٠)، فهو لبيان أنه ليس له خلاق من الخير، ولا نصيب له فيه وإنما نصيبه وخلاقه فيما يضاد ذلك، وهو أيضا إيتاء، على قدر العمل، وعليه يكون له إيتاء فى الدنيا من الذى رغبه، وجعل إيتاءً؛ لأنه بالنسبة له يعدُّ دنياه وآخرته... وإيتاء فى الآخرة من الذى لا يرغبه وجُعل إيتاءً لأنه بالنسبة له يغد دنياه وآخرته وإيتاء فى الآخرة من الذى لا يرغبه وجعل إيتاء لأنه لا ينفك عنه، أما الإعطاء فيكون فيه انصراف، وله نهاية كآية الكوثر فإن الناس ينصرفون عنه إلى دار العزّ والكرامة كما سيأتى قريبًا بيانه... وتلك قيمة التعبير بالإيتاء حتى مع حرف التبغيض، فهو أعم وأشمل، أما الإعطاء فله زمان أو مكان كما سبق، وكذلك يكون العطاء مددًا، أو نعيما مخصوصًا مفوضًا فيه أو ناجمًا عن طلب...

فالأول قوله تعالى ﴿**من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا لهم جهنم يصلاها مذموما مدحورًا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورًا كلًا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورًا**﴾ (الإسراء ١٨: ٢٠).

نلحظ أولًا أنه عبر بالعطاء هنا لأنه كان بين مؤمن وكافر، مؤمن يسعى للآخرة، وكافر كان ترفه فسقا، فهذا أمدّه الله ليكون مددًا له فى جهنم، وهذا أمده الله ليستعد للآخرة، وهو منه فحسب بقدر ما يريد الله، وليس عطاء مطلقًا...

أما هناك فقال ﴿**ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها...**﴾ لأنه كان بين مجاهد ومجاهد، المهم أنه جهاد وإن اختلف المقصد، لذلك ختمت الآية بالترغيب فى العطاء الأوسع ﴿**وسنجزى الشاكرين**﴾ دون تقليل من شأن الذى جاهد للذكر والغنائم، أما آية العطاء فختمت بقوله ﴿**وما كان عطاء ربك محظورًا**﴾ أى يستوى فى ذلك المؤمن

والكافر، وكلٌ له ما يناسب مراده وعمله...

فالذى يتناسب مع (المدد) إذن هو العطاء، أما الإيتاء فلا يكون مددًا، وهذا يحقق ما سبق أيضا من أن الإعطاء يكون فى القليل والكثير. بخلاف الإيتاء فلا يكون إلا فيما كان عظيمًا أيًا كانت تلك العظمة فى الخير أو فى غير ذلك كالذى أراد الدنيا فحسب...

والثانى: الذى يكون العطاء فيه نعيما مخصوصا مفوضا فيه... هو:

قوله تعالى ﴿**ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا ثم أناب قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الأصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب**﴾ (ص ٣٤: ٣٩).

فهذا إعجاز أراد الله به أن تتجلى قدرته على يد عبد من عباده تخصيصًا له وتلبية لطلبه حين قال ﴿**رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى**.... فأعطاه هذه النعم العظيمة وفوض إليه التصرف فيها (فامنن أو أمسك بغير حساب، قال الزمخشرى « أى لا حساب عليك فى ذلك»[١٠].

فهذا تفويض لا نجد له مثلًا مع الإيتاء لأنه إلزام وتكليف، والعطاء هنا نظير طلب صريح، وقد يكون الطلب غير صريح كما فى سورة الكوثر، فضيق صدر رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بوصفهم له بأنه أبتر يدل على إرادة العطاء.

وكذلك الشأن فى آية الضحى لما قالوا: محمد قلاه ربه كان العطاء الذى به يرضى كل الرضا ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ ولا يجوز التعبير فى كل ذلك بالإيتاء لأنه تفضل، لا تكليف فيه ولا إلزام، وهو نعيم محدود كما سبق.

ولما كان المقابل للعطاء هو البخل فى قوله تعالى ﴿**فأما من أعطى واتقى**

---

(١٠) الكشاف ٣/ ٣٧٦.

وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى...﴾ دل على أنه كان بعد حاجة أو طلب وإن كان غير صريح...

أما التعبير بالإيتاء فلم يسبق بطلب؛ لأنه لا يكون تفضلًا أو تكريمًا وتخصيصًا فحسب وإنما يجمع بين هذا وبين التكليف والإلزام..

كما يلاحظ أنه لا تفويض مع الإيتاء أبدًا، والتعبير به فى شواهد الإرادة كما سبق فى قوله تعالى ﴿**ومن يرد ثواب الدنيا...﴾** إما أن يكون تنسها للأولى والأفضل، وإما أن يكون تحذيرًا وترهيبًا كالآيتين المختومتين بقوله سبحانه ﴿وما له فى الآخرة من خلاق﴾، ﴿وما له فى الآخرة من نصيب﴾ أما التعبير به مع السؤال وسَبْق الطلب فى قوله تعالى ﴿... **قال قد أوتيت سؤالك يا موسى﴾** (طه ٣٦).

فكان فى أمر الدعوة إلى الله وهو أمر عام، وقد طلب من الله أن يشد أزره بأخيه لِعِلَّةٍ كانت به ربما تعوقه فى التبليغ، ويوضح ذلك قوله تعالى على لسانه ﴿**وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءًا يصدقنى﴾** (القصص ٣٤).

ولم يصلح التعبير بـ (أعطيت) هنا لأنه جاء فى مشقة التكليف أيضاء وقد طالت مناجاته لربه وعلل طلبه بقوله ﴿كى نسبحك كثيرًا ونذكرك كثيرًا إنك كنت بنا بصيرًا﴾، فكان هذا التعبير مناسبًا للتصد بما فيه من عظمة وسيولة فى العطاء، تتجلى فى هذه النعم التى أعقبت ذلك ﴿**ولقد منا عليك مرة أخرى إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى...﴾** إلى أن قال: ﴿**واصطنعتك لنفسى﴾**.

كان التعبير بالإيتاء مقدمة لهذا العطاء الدافق، الذى بدأ بالتلبية المحققة ﴿**قد أوتيت سؤالك يا موسى﴾** وانتهى بالاصطفاء الخالص ﴿**واصطنعتك لنفسى﴾**.

ويأتى التعبير بـ (آتينا) مع الكتاب أيضا لبيان النعم وترابط الشرائع

وتواصلها، واتحاد طرائق المتلقين لها، نرى ذلك حين يتحدر الحديث عن النعم مصحوبا بالتسلية فى قوله تعالى: ﴿ **ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ (الجاثية ١٦، ١٧).

فهؤلاء بنو إسرائيل أنعم الله عليهم بصنوف نعم الدين وجعلهم أرفع منقبة ممن سواهم فى زمانهم، قال الرازى ﴿فضلناهم على عالمى زمانهم﴾[١١]، ومع ذلك كان اختلافهم بغيا بينهم... بعد أن آتاهم الكتاب، وآتاهم بينات من أمرهم... والقضاء ليس بينهم وحدهم، بل بين جميع من تمثل بطريقتهم المهم أن هذا التعبير (الإيتاء) فيه قوةالربط بين الماضى والحاضر وأن نعم الله عامة متتابعة على خلقه، لذلك قال سبحانه وتعالى مبينًا تلاحم الشرائع وإتمام النعم:

﴿**وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ثم آتينا موسى الكتاب تمامًا على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون**﴾ (الأنعام ١٥٣: ١٥٥).

من كل ذلك نجد أن التعبير بلفظ الإيتاء مقرونا بضمير العظمة كما يأتى فى إبراز النعم والتذكير بها يأتى كذلك فى إبراز مناهج الأمم وتبيان أحوالها، وترابط الشرائع، والترغيب فى حسن الطاعة...

قال الزمخشرى ﴿**تمامًا على الذى أحسن**﴾ أى تتمة للكرامة على العبد الذى أحسن الطاعة فى التبليغ وفى كل ما أمر الله به[١٢].

ومثل هذه الأمور المفصلة الموضحة للمناهج والراسمة لمبادىء الأمم لا يوائمها التعبير بلفظ الإعطاء لأن معناه فيها لا يكون شيئا بجانب مقاصدها،

---

(١١) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٦٦.

(١٢) الكشاف ٢/ ٦٢.

والنعم المعنوية نفعها أعم وأعظم.

*الجمع بين التعبيرين (الإيتاء والإعطاء) فى شأن الأنبياء:

نلحظ أنه لم يأت التعبير بلفظ الإيتاء تارة والإعطاء أخرى فى شأن أحد من الأنبياء سوى سيدنا سليمان وسيدنا محمد (عليهما السلام).

أما سيدنا سليمان فجاء التعبير معه بالإعطاء فى آية التسخير السابقة هنا ﴿فسخرنا له الريح...﴾ الآية، والإيتاء فى قوله تعالى ﴿**ففهمناها سليمان وكلًا آتينا حكما وعلما**﴾ (الأنبياء ٧٩) وقوله سبحانه ﴿**ولقد آتينا داود وسليمان علما**﴾ (النمل ١٥) .

وهذا أيضا فى معرض الامتنان وبيان الفضل، والعلم والحُكم من أعظم النعم التى تصلح شئون الحياة.

أما فى شأن سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم- فجاء التعبير بالإيتاء فى أعظم النعم التى يعم نفعها الدنيا والآخرة، وذلك كما فى قوله تعالى ﴿ **ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم**﴾ (الحجر ٨٧).

وجاء التعبير بالإعطاء فيما كان نعمة عظيمة الشأن رفيعة القدر فى الآخرة وحدها كما سبق فى قوله تعالى ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر،،،**﴾ السورة.

فإن كان هذا عطاء عظيما فيه تكريم وتشريف إلا أنه قليل بجانب السبع المثانى... وهى سورة الفاتحة على أرفق الآراء وأرجحها، وسميت بذلك لأنها تجمع معانى القرآن الكريم كله إجمالًا بما فيه من عقيدة وشريعة، لذا عطف عليها القرآن كأنه قيل أعطيناه مجملا ثم مفصلا، أو لأنها تثنى فى كل ركعة، ومثل ذلك يليق معه التعبير بالإيتاء، لأنه نعمة معنوية عامة لها شأن فى الدنيا ومنزلة يوم القيامة...

وكلتا النعمتين تخصيص وتفضيل ولكن الأول إلزام وتكليف وفيه مشقة وهو حمل ثقيل كما قال سبحانه ﴿**إنا سنلقى عليك قولًا ثقيلا**﴾ (المزمل ٥) لذا

جاء معه اللفظ الأقوى، والثانى كالهدية والتعويض أو الجائزة فحسب.

وذكر الإمام الرازى بين التعبيرين ههنا فروقا دقيقة فقال:

(قال: ﴿**أعطيناك الكوثر**﴾ ولم يقل آتيناك، والسبب فيه أمران:

الأول: أن الإيتاء يحتمل أن يكون واجبا وأن يكون تفضلا، أما الإعطاء فإنه بالتفضل أشبه، فقوله (إنا أعطيناك الكوثر) يعنى هذه الخيرات الكثيرة، وهى: الإسلام، والقرآن والنبوة والذكر الجميل فى الدنيا والآخرة محض التفضل منا إليك، وليس شىء منه على سبيل الاستحقاق والوجوب... والتفضل نتيجة كرم الله وهو غير متناه، وكونه تفضلا يشعر بالدوام والتزايد أبدًا...

الثانى: هو أن الإعطاء يستعمل فى القليل والكثير، قال تعالى ﴿**وأعطى قليلا وأكدى**﴾، أما الإيتاء فلا يستعمل إلا فى الشىء العظيم، قال تعالى ﴿وآتاه الله الملك﴾ و ﴿**ولقد آتينا داود منا فضلا**﴾، والأتى: السيل المنصب.

ثم قال: فإن قيل: أليس قال (آتيناك سبعا من المثانى)؟ قلنا: الجواب من وجهين:

الأول: الإعطاء يوجب التمليك، والملك سببه الاختصاص، والدليل عليه أنه لما قال سليمان ﴿هب لى ملكا﴾ فقال (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك) ولهذا السبب من حمل الكوثر على الحوض قال: الأمة تكون أضيافًا له. أما الإيتاء فإنه لا يفيد الملك، فلهذا قال فى القرآن (آتيناك) فإنه لا يجوز للنبى أن يكتم شيئا منه.

الثانى: أن الشركة فى القرآن شركة فى العلوم ولا عيب فيها، أما الشركة فى النهر فهى شركة فى الأعيان وهى عيب. (أى أن ورود الأمة على الحوض شركة فى خصوصية النبى- صلى الله عليه وسلم- تكريمًا وتشريفًا لهم).

وبعد ذلك بين سرًا آخر من أسرار التعبير فقال:

إذا ثبت هذا فقوله ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ يفيد تعظيم حال محمد- صلى الله عليه وسلم- من وجوه:

الأول: يعنى هذا الحوض كالشىء القليل الحقير بالنسبة إلى ما هو مدخر لك، فهو يتضمن البشارة بما هو أعظم...

الثانى: أن نعيم الماء إعطاء ونعيم الجنة إيتاء.

الثالث: كأنه يقول: هذا وإن كان كوثرًا لكنه فى حقك إعطاء لا إيتاء لأنه دون حقك.

الرابع: أن تقول: إنما قال فيما أعطاه من الكوثر: أعطيناك لأنه دنيا والقرآن إيتاء لأنه دين(١٣).

الخامس: كأنه يقول: جميع ما نلت منى عطية وإن كان كوثرًا إلا أن الأعظم من ذلك الكوثر أن تبقى مظفرًا وخصمك أبتر(١٤).

هذه فروق جديرة بالذكر لأنها تثبت فى هذا الباب حقائق أشرت إلى بعضها خلال دراسة الشواهد السابقة.

والإعطاء كما قال قد يكون تفصلا واختصاصًا كما هنا، وقد يكون وجوبا كآية الجزية ﴿... حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾.

وإن كان الإيتاء كما قال يحتمل التفضل والوجوب إلا أن الفرق أنه لا يخلو من التكليف... لذلك كان بعيدًا عن التفويض ولم يأت فيما كان قليلا... أما قوله « نعيم الماء إعطاء ونعيم الجنة إيتاء » فهذا على القول بأن الكوثر نهر فى الجنة، والسُّنة ترجحه... وهو نعيم ولكنه كان إعطاء ﴿لأن النبى-

---

(١٣) أى أن سببه يرجع لأمر كان فى الدنيا، وهو وصفهم له بأنه أبتر، فكان هذا صلة تَفْضل كل عطاء الدنيا، وتبقى هذه الصفة (الأبتر) من خصوصيتهم يوم الدين، فلا نصيب لهم فى العطاء هنالك.

(١٤) التفسير الكبير ٣٢/ ١٢٣ بشىء من الاختصار.

صلى الله عليه وسلم- وأمته يردون على الحوض ورود النازل على الماء، ويرتحلون إلى منازل العز والأنهار الجارية فى الجنان... فهو يترك عن قرب وينقل إلى ما هو أعظم منه﴾[١٥] أى أن الإعطاء- كما سبق- يقال فيما كان محددًا بزمن وليس على سبيل العموم كشأن الإيتاء...

وقال الرازى ﴿ ونعيم الجنة إيتاء﴾ لدوامه، فهو أعم وأعظم... وذلك ما يتناسب مع الإيتاء كما سلف...

وهكذا يتجلى الغرض الأول من شواهد إيتاء الكتاب وهو الامتنان وبيان النعمة والإرشاد إليها، لأن الإرشاد إلى النعمة والحث عليها نعمة عظيمة القدر[٥]...

* * *

ثانيا: ما جاء فى معرض التسلية والتثبيت:

هذا هو الغرض الثانى من أغراض التعبير بالإيتاء مع الكتاب ويُعد امتدادًا للغرض الأول لتقارب المعانى والسياقات بينهما.

والحق- سبحانه وتعالى- كثيرًا ما يسلى رسوله- صلى الله عليه وسلم- بشأن سيدنا موسى مع قومه لوجود التقارب بينهما فى المنة وتحمل المعاناة من أقوامهم... قال تعالى بعد أن بين مصير الذين شقوا والذين سعدوا ﴿**فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب**﴾ (هود ١٠٩، ١١٠).

فالغرض من ذكر إيتاء سيدنا موسى الكتاب هنا هو التسلية والتثبيت،

---

(١٥) ينظر البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٤/ ٨٦..

(٥) وينظر من هذا القبيل: النساء ٥٤، والإسراء ١، ٢ والسجدة ٢٣، والأنعام ٨٩، ومن غير شواهد إيتاء الكتاب فى هذا الباب أيضا: المائدة ٢٠، والأعراف ١٤٤، والحشر ٧.

لذلك جعله مقدمة لقوله سبحانه ﴿**فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغو إنه بما تعملون بصير**﴾ (هود١١٢).

والبيان حين يتعلق بالنفس ويكون غرضه تثبيت القلب يكون إيتاء لأن هذه مرحلة عالية ترنو إلى قوة التمكين ولا يوائم ذلك سوى مادة الإيتاء، وليس لمعنى الإعطاء ههنا سبيل... أما وجه التقارب بين النبيّيْن فهو ما نلاحظه فى هذا البيان السابق من أن: شكهم فى جانب النبى- صلى الله عليه وسلم- يقابله اختلافهم فى جانب سيدنا موسى- عليه السلام- وهذا الشك «وإن لم يجر له ذكر، فإن ذكر إيتاء كتاب موسى ووقوع الاختلاف فيه لاسيما بصدد التسلية ينادى به نداء غير خفى» (١٦).

وتكررت الآية بنصها فى قوله تعالى ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب**» (فصلت ٤٥).

ومقامها مقام تسلية أيضا، بدليل قوله تعالى قبلها بقليل ﴿**ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك**﴾ (فصلت ٤٣).

ويعظم مقام التسلية حين يعرض ما هو أفظع مما كان من أمته كما فى قوله تعالى ﴿**يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا**﴾ (النساء ١٥٣).

فقوله تعالى ﴿**فأخذتهم الصاعقة بظلمهم**﴾ يبين أن المقام ليس مقام تسلية فحسب، ولكنها تسلية تبشر بالنصر، قال الرازى «وفيه بشارة لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- على سبيل التنبيه والرمز بأن هؤلاء الكفار وإن كانوا يعاندونه فإنه بالآخرة يستولى عليهم ويقهرهم»(١٧) ويتناسب مع ذلك أيضا

---

(١٦) الفتوحات الإلهية ٢/ ٤٢٦.

(١٧) تفسيره حـ١١/ ٩٧.

قوله (سلطانا مبينا) وهذا مقام الإيتاء دون الإعطاء...[١٨]

وليس مقام التسلية مع الإيتاء مقصورًا على ذكر سيدنا موسى، بل يأتى أيضًا على سبيل العموم كقوله تعالى ﴿**أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين**﴾ (الأنعام ١١٤).

جاءت هذه الآية أيضا فى مقام التسلية والتثبيت لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- والتعبير بالإيتاء فيها مصحوب بضمير العظمة يقابل قوة الجحود والعناد التى لم يشأ الله أن يصرفهم عنها، يتجلى ذلك فى قوله تعالى قبل هذه الآية ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله... إلى أن قال: ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾ ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك لما فيه (من الامتحان الذى هو سبب ظهور الثبات والصبر وكثرة الثواب والأجر)[١٩] وهذه أمور عظيمة تناسب عظمة الإيتاء وقوة معناه ومراده كما سبق.

وإذا تأملنا فى قول الحق جل ذكره ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين**﴾ (آل عمران ٨١).

رأينا قيمة التعبير بقوله (آتيتكم) حيث جاءت فى أمر عظيم يطوى الأزمان كلها أى أزمان الأنبياء ويجمعهم فى وقت واحد ويأخذ عليهم هذا الميثاق المحقق (لتؤمنن به ولتنصرنه) بما فيه من إلتزام لهم ولأتباعهم، وهذا الإقرار، وأخذ العهد المعبر عنه بكلمة (إصرى) وما فيها من قوة صوتية تتوافق مع القوة

---

(١٨) وينظر من ذلك: المؤمنون ٤٩، والفرقان ٣٥، والقصص ٤٥، وكلها تواسى وتسلى بذكر سيدنا موسى- عليه السلام.

(١٩) الكشاف ٢/ ٤٥.

المعنوية المرادة فهى بمعنى (العهد المؤكد الذى يثبط ناقضه عن الثواب والخيرات)[٢٠].

وليس هذا تثبيتًا فحسب ، بل هو تثبيت وتكريم وتعظيم تتضمنه تلك البشارة برسالته وأخذ العهد على الإيمان بها قبل ظهورها...

ويأتى مقام التسلية أيضًا بلفظ الإيتاء مسبوقًا بالنفى وبغيره... ومصحوبا بالوعيد والتحذير: قال تعالى ﴿**وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير...**﴾ (سبأ ٤٤، ٤٥).

لما حكموا على القرآن الكريم بأنه مفترى وأنه سحر أراد الحق سبحانه وتعالى أن يقتلع جذور حكمهم هذا ليتحقق وعيده ونكيره بهم كما حدث لأمثالهم من قبل وكانوا أقوى منهم وأعلم... فقال سبحانه ﴿وما آتيناهم...﴾ فأنى لهم هذا الحكم (وهم أميون لم يؤتوا من قبل كتابا يقيسون به الكتب ويعرفون به الوحى فيفتوا بأن ما جاءهم اليوم ليس كتابا وليس وحيا... ثم يذكرهم بمصارع الذين كذبوا من قبل وهم لم يؤتوا معشار ما أوتى أولئك الغابرون من علم ومن مال ومن قوة..)[٢١]

ولما كان واجب الحكم أن يبنى على شىء مكين جاء التعبير بالإيتاء مسبوقًا بالنفى ولا يصلح ههنا التعبير بالإعطاء لأن هذه أمور معنوية كما سبق، تحتاج إلى قوة التعبير الذى يتناسب مع موقفهم والذى يتوائم مع قوة التحذير ببيان مصير السابقين من أمثالهم، ويتجلى من ذلك تسلية النبى- صلى الله عليه وسلم- وتثبيته وبيان أن هذا ليس أمرًا جديدًا وإنما هو فى غابر الأمم أيضا.

وتلك دقائق التعبير بـ (آتينا) مع (الكتاب) [٢٢] كما رأيناها تأتى فى معرض

---

(٢٠) المفردات (أصر).

(٢١) فى ظلال القرآن ٥/ ٢٩١٤.

(٢٢) ونظائر ذلك أيضا فاطر ٤٠، الزخرف ٢٠، ٢١، طه ٩٩.

الامتنان أحيانا، والتسلية أحيانا أخرى، بالإضافة إلى المعانى التى تتولد من السياق نحو الوعيد والتهديد والإنكار عليهم... وكثر مقام التسلية بذكر سيدنا موسى- عليه السلام- وكذلك جاء هذا المقام على وجه العموم كما جاء مع الذين يعرفون الكتاب، والذين يفرحون به والذين يعرفون أنه منزل من ربك بالحق(٢٣)..

* * *

أما التعبير بـ (أتوا) مع الكتاب، ففيه من المعانى ما يوائم السياق كذلك، وإذا كان الراغب الأصفهانى فرق بين التعبيرين بقوله (وكل موضع ذكر فى وصف الكتاب بـ (آتينا) فهو أبلغ من كل موضع ذكر فيه (أوتوا)؛ لأن (أوتوا) قد يقال إذا أوتى من لم يكن منه قبول، و (آتيناهم) يقال فيمن كان منه قبول)(٢٤)- فليس ذلك على إطلاقه لأن (آتينا) قد تأتى فى سياق الحديث عن المنكرين كما سبق فى آيتى سبأ ونظائرها.

أما (أوتوا) فتأتى أيضا فى مقام الحط من شأن الذين نبذوا الكتاب... واختلفوا بعد أن جاءتهم البينات وبغوا كذلك وتفرقوا... إلخ وسيأتى بيانه بالتفصيل... وقد تأتى فى مقام الحث على التقوى كقوله تعالى ﴿**ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله**﴾ (النساء ١٣١).

وبيان استيقانهم وعدم ارتيابهم كقوله تعالى ﴿**ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون**﴾ (المدثر ٣١).

والأول هو الغالب، وذلك الذى أشار إليه الراغب بقوله (لأن «أوتوا» قد يقال إذا أوتى من لم يكن منه قبول)، وبالنظر فى مواطنها نجد اختلاف مقام التعبير بها أيضا، من تسلية وتحذير، ووعيد... كما يلى: فمما جاء فى سياق

---

(٢٣) ينظر: البقرة ١٢١، ١٤٦، النساء ١٦٣، المائدة ٤٦، الأنعام ٢٠، الرعد ٣٦، الحديد ٢٧.
(٢٤) المفردات (آتى).

التسلية والتثبيت قوله تعالى ﴿**ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون أو كلما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون**﴾ (البقرة ٩٩: ١٠١).

فهذا الوصف (الفاسقون) يدل على أن الفسق كان طبعا متأصلا فيهم؛ لأن التعبير بالاسم يقتضى ثبوت الصفة، وحصولها دون تجدد، ومن ثم اعتادوا نبذ العهد وتوارثوه... وقوله ﴿**كأنهم لا يعلمون**﴾ «تسجيل عليهم بأنهم عالمون بأن القرآن كتاب الله، أو كأنهم لا يعلمون التوراة وما فيها من البشارة ببعثة الرسول من ولد إسماعيل»(٢٥).

ولما كان المقصود من بيان سفاهتهم، والتنديد بتوالى طريقتهم مع الأنبياء، تسلية النبى وتثبيته، عُبر بـ (أوتوا) الذى يوحى بعدم قبولهم، ليكون ذلك استخفافًا بهم مقابلًا جحودهم كتاب الله، ولدحض هذا الافتراء كله، وزيادة التشنيع عليهم أضاف ما نبذوه إلى الله (كتاب الله) تكريمًا له وتشريفًا، وزيادة فى التنكيل بهم، وتحقيقًا لفسقهم... وكثيرًا ما يقص القرآن سرَّ عنادهم، واختلافهم، ويبين أنه البغى الذى تسلط عليهم. قال تعالى ﴿**وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيابينهم**﴾ (البقرة ٢١٣) وقال تعالى ﴿**إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم...**﴾ (آل عمران ١٩، ٢).

وهذا السياق فيه تثبيت للمسلمين، وتحذير من الاختلاف وتهديد لمن تولى عنه وأعرض والتعبير بـ (أوتوا) يدل على أنهم ليسوا أهلا لتعظيم الله لهم فى موقفهم هذا من البغى والاختلاف... ويأتى ذلك أيضا فى مقام الوعيد، والإخبار بما يقع تثبيتًا وتسلية حتى إذا ما وقع كان كأنه معهود ومعلوم، فتتقبله النفس بقوة وعزيمة، وهذا من أعظم مقامات التسلية والتثبيت... وهو ما نراه فى

---

(٢٥) التحرير والتنوير ١/ ٦٠٤.

مثل قول الحق تبارك وتعالى:

﴿لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيرًا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ (آل عمران ١٨٦).

ولما كان الأمر كذلك رغب فى الصبر وقوة العزيمة فى ختام الآية، وفيه يقول الرازى: «والغرض من هذا الإعلام: أن يوطنوا أنفسهم على الصبر وترك الجزع ...»(٢٦).

والتعبير بـ (أوتوا) بالبناء للمفعول، فى مثل هذه المواقف يصور جفاءهم للحق من جانب ويصور بغض الحق لهم وعدم اكتراث المسلمين بهم من جانب آخر، لأن هذا الأذى لم يكن منهم غريبا بعد أن نبأ به القرآن، خرقًا لستر هؤلاء، وتثبيتًا لهؤلاء...(٢٧)

ولكن ليس كل (أوتوا) تعطى هذا العطاء، وإنما يختلف ذلك باختلاف المقام والسياق، وسيأتى ما يثبت نقيض ذلك فى بيان الذين أوتوا العلم وأنه تشريف لهم وتكريم، وليس تنديدًا بهم. ولا يغفل أن هذا المقام الذى نتحدث فيه هو مقام الذين أوتوا الكتاب فنبذوه، واشتروا به ثمنا قليلا، وآمنوا بالجبت والطاغوت... أو اختلفوا، وبغوا وتفرقوا... وعطاء التعبير إنما ينبرى من مثل ذلك، ويلاحظ أنه عطف عليهم هنا «الذين أشركوا» ولم يقل: والمشركين مثلا.. لبيان تحقق شركهم وأنه تجاوز حده وتمكن منهم بعد هذه البينات التى جاءتهم والتمكن واحد من عطاء الهمزة فى صيغة (أفْعَل)، فلما نبذوا وأنكروا واختلفوا ولم يمتثلوا، كانت لهم تلك المذَمَّة وهذا البعد الذى يوائم بعدهم... ولم يُستثن من ذلك سوى آية التحليل، التى يقول فيها الحق سبحانه **﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم**

---

(٢٦) تفسيره ١٩/ ١٣١.

(٢٧) وينظر المائدة ٤١، والبينة ٤.

والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم...﴾ الآية (المائدة ٥). فهى فى بيان هذا الحكم وليست فى بيان مذمتهم بسبب أفعالهم ومواقفهم، وكذلك آية المدثر (٣١) فهى تدعوا إلى استيقانهم وعدم ارتيابهم فى أن أصحاب النار ملائكة لا يغالبون... وفيها تثبيت للمؤمنين أيضا...

ثالثًا: ما جاء فى معرض التحذير والوعيد وما شابه ذلك:

ثم يأتى مقام توبيخهم وتهديدهم والتحذير من مسلكهم فى قوله تعالى: **﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون﴾** (آل عمران ١٨٧).

أخذ الله عليهم العهد ببيان أمر النبى- صلى الله عليه وسلم- للناس فكتموه ونبذوه...، وفوق كل هذا اشتروا به ثمنا قليلا «فبئست الصفقة صفقتهم وبئست البيعة بيعتهم، وفى هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم، فيصيبهم ما أصابهم»(٢٨).

لما كان ذلك كذلك كان التعبير بـ (أوتوا) والحالة هذه، موحيا بالتخلية عنهم(٢٩)، وبيّن البقاعى أنه يدل «على استهانة الحق بهم وبراءته منهم»(٣٠).

وليس أدل على ذلك من تعظيم حال المسلمين وارتفاع شأنهم ومنزلتهم، وتحقير هؤلاء وبيان ذلتهم وهوانهم، وذلك لقوة سلاح المؤمنين (بالإيمان) وهؤلاء لا سلاح لهم، ومن ثم يتمثل صغارهم فى هذا الباب فى قول الله تعالى: **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾** (التوبة ٢٩).

---

(٢٨) تفسير ابن كثير ١/ ٤٣٦.

(٢٩) ينظر من هذا القبيل: آل عمران ٢٣، النساء ٤٤، ٥١.

(٣٠) نظم الدرر ٨/ ٤٣٥.

فقوله تعالى ﴿**من الذين أوتوا الكتاب**﴾ بيان لما قبلها، فهم المتصفون بهذه الصفات، ومن ثم كان خليقا بهم هذا التعبير بالبناء للمفعول (أوتوا) لتظهر استهانة الحق بهم مواءمة لعدم قبولهم الحق وامتثالهم له..

ويزداد هذا التقليل من شأنهم بإرغامهم على قبول ما يفرض عليهم نظير دخولهم فى ذمة المسلمين، وضمانتهم «حتى يعطوا الجزية...» من مالهم الذى يملكونه، ويحق لهم التصرف فيه، وهذا شأن الإعطاء كما سلف، لذا عبر به هنا، وجاء بصيغة المضارع دلالة على استمرار هوانهم، وإكرامهم على قبول الجزية قبولًا يكون منهم بمنزلة الرضا، لذلك قال (عن يد وهم صاغرون)، أى عن يد مستسلمة ذليلة منقادة لما يفرضه الإسلام، فكأنه «قيل: قاتلوهم حتى يعطوا الجزية عن طيب نفس وانقياد، دون أن يكرهوا عليه، فإذا احتيج فى أخذها منهم إلى الإكراه لا يبقى عقد الذمة»(٣١).

ويكون ذلك بمثابة الإقرار بأن يد المسلمين فوقهم، وأنهم تحت قبضتهم ويتجلى كل ذلك من التعبير بـ (صاغرون)؛ لأن الصاغر هو (الراضى بالمنزلة الدانية) أو (الراضى بالذل والضيم)(٣٢).

وفى هذا أيضا تحذير من التشبه بهم، لأنهم أوتوا الكتاب وخالفوا أمر الله فيه، وفيه كذلك تثبيت على الإيمان والطاعة.

ويلاحظ أيضًا أنه عبر مع الكتاب بالإيتاء لأنه معنى عظيم دائم نفعه ثابت مقامه، ومع الجزية بالإعطاء لكونها شيئا محسوسًا نظير أمرٍ ما، ولها أمد ستنتهى عنده.

وإذا نظرنا فى قول الحق سبحانه بعد عتاب أهل الكتاب وتعنيفهم على كفرهم بآيات الله وصدهم عن سبيله ﴿**يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من**

---

(٣١) ينظر الفتوحات الإلهية ٢/ ٢٧٦.

(٣٢) ينظر المفردات ولسان العرب (صغر).

الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ (آل عمران ١٠٠).

وجدنا التحذير من طاعتهم، لكفرهم بما أوتوا وعدم امتثالهم له، ومن ثم قال (يردوكم...) ونظيره قوله تعالى ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون**﴾ (الحديد ١٦).

وهذه الشواهد ونظائرها فيها تحذير ووعيد من اتباع هؤلاء، ولا يوافق ذلك سوى التعبير بـ (أوتوا) الدال على الاستهانة بهم... وقد سبق سر ذلك.

* * *

رابعًا: ما جاء فى معرض الدفاع ودحض الافتراء:

وهو الغرض الرابع من أغراض التعبير بالإيتاء مع الكتاب، ويتجلى ذلك من خلال شواهده، ولم يأت إلا فى تعبيرين من مشتقات هذا الأصل (الإيتاء) وهما (يؤتيه، وآتانى).

فالأول قوله تعالى ﴿**ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادًا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون**﴾ (آل عمران ٧٩، ٨٠) هذه واحدة من افتراءاتهم على أنبياء الله، والسياق يرجح أنها رادة على النصارى الذين ادعوا ألوهية عيسى- عليه السلام- وادعوا أن عبادته شرعة مستندة إلى أوامره، فهو ينفى الكون والمراد نفى الخبر...[٣٣] أى ينفى أن يكون ذلك أبدًا من أحد آتاه الله الكتاب وأمره بتبليغه، ويتجلى دحض هذا الافتراء على سبيل العموم من عدة وجوه:

١- التعبير بـ (بشر) الذى يشعر بعلة الحكم، فإن البشرية منافية للأمر الذى

---

(٣٣) ينظر البحر المحيط ٢/ ٥٠٤.

تقوّلُوه عليه، ويستحيل هذا فى حق الأنبياء؛ لأن صفاتهم تنافى ذلك[٣٤].

٢- التعبير بـ (يؤتيه) مسندًا إلى اسم الجلالة، يدل على عظمة هذا الافتراء وإنكاره وبغضه ولاسيما فى حق الأنبياء، واسم الجلالة (الله) يدل على مهابة الحق وهيمنته، وأنه لا يجب أن تكون العبادة إلّا له...

٣- بناء الفعل (يؤتيه) للفاعل يفيد عموم هذا النفى وشموله لجميع الأنبياء وأممهم لذلك قال «ثم يقول للناس...» ولم يحدد قومه...، وتقديم ضمير المفعول الأول (يؤتيه) على الفاعل يحقق المقصود، وهو نفى الاتهام لما فيه من زيادة تخصيص واهتمام بشأنه، ويتجلى ذلك أيضا من هذا الإنكار «أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون»؟! وبذلك يتناسب هذا التعبير (يؤتيه) مع السياق والقصد بما فيه من عظمة معنوية وقوة خفية لا تتحقق مع لفظ (يعطيه).

والثانى: قوله تعالى فى شأن مريم وعيسى- عليهما السلام- ﴿... **فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئًا فريا يأخت هارون ما كان أبوك امرأ سوءٍ وما كانت أمك بغيا فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا...**﴾ (مريم ٢٧: ٣٠).

يرشد ذلك السياق إلى أن قدرة الله- عز وجل- لا يعجزها شىء، فلما رموا مريم- عليها السلام- بهذه الفرية، وكانت قد نذرت للرحمن صوما ألا تكلم اليوم إنسيا، أشارت إليه حين كلموها، ومن هنا تجلى الإعجاز (قال إنى عبد الله آتانى الكتاب)، الذى يدحض افتراءهم على الله أولًا بإثبات العبودية له، تلك التى تتضمن معنى التنزيه عن الولد، ثم تبرئة أمه مما نسبت إليه من الفاحشة، (كأنه بذلك جعل إزالة التهمة عن الله سبحانه أولى من إزالتها عن الأم، فكان تنزيه الحق سبحانه فى المرحلة الأولى، لأنه يعم تنزيهه وتبرئة مريم- عليها السلام)[٣٥]، فالإيتاء إذن يعبر به فى الأمور المعنوية العظيمة التى تحقق

---

(٣٤) ينظر الفتوحات الإلهية ١/ ٢٩١.

(٣٥) ينظر تفسير الرازى ٢١/ ٢١٠.

الإعجاز وتُقَوِّض الافتراء وتثبت المنّة...

* * *

خامسًا: بيان النعيم أو العذاب فى الآخرة:

ويكون ذلك فى التعبير بـ (أوتى) بالبناء للمفعول، فشواهده مع (الكتاب)(٥) تتخلص لبيان النعيم أو العذاب فى الآخرة، وهى تفيد تعظيم المؤتَى وارتفاع منزلته سواء فى الخير أو غير ذلك، وما جاء منه فى بيان النعيم عبر معه بالفاء (فأما من أوتى...) أو (فمن أوتى...) وما جاء فى بيان العذاب عبر معه بالواو (وأما من أوتى) وهذا غير ذاك، فالفاء تفيد الترتيب والتعقيب، وإتيانهم الكتاب بيمينهم تفرع وترتب على حسن صنيعهم فى الدنيا...

أما الواو فى قوله (وأما من أوتى) فتفيد امتداد الزمن بمعنى أن نكالهم وعذابهم امتداد لبعدهم عن الحق فى الدنيا، وكان هذا نكالًا يحيط بهم أيضا وإن كانوا لا يشعرون..، وبيان ذلك يتجلى فيما يلى:

قال تعالى ﴿**يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا**﴾ (الإسراء ٧١).

أرجح الأقوال فى (الإمام) أنه (الكتاب) بدليلين، أولهما: قوله بعده (فمن أوتى كتابه بيمينه) والثانى: قوله تعالى ﴿وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين﴾(٣٦) (**يس ١٢**)والبناء للمفعول هنا يفيد تعظيم المؤتى فى جميع أحواله: اليمين أو الشمال أو وراء الظهر لأنه (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) فيحقر صاحب الشمال ولا يحقر كتابه لأنه ميزانه... ومن ثم شرف أصحاب اليمين بذكر اليمين وقراءة كتابهم، ليس هذا فحسب، بل أيضا بدعوة غيرهم

---

(٥) معلوم أن المراد بالكتاب هنا: صحيفة الأعمال يوم القيامة.

(٣٦) ينظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٢.

لقراءته كما قال تعالى ﴿**فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه**﴾ (الحاقة ١٩).

وعظمة الموقف تستدعى هذا التعبير القوى الذى يومىء بسهولة الإعطاء ويبين أن القصد فيه إلى الجانب المعنوى... لأن الأعمال الحسنة هى أصل هذا النعيم أو هى سبب يُسْر الحساب كما قال تعالى ﴿**فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرًا**﴾ (الإنشقاق ٧)، ولا يصلح هنا التعبير بالإعطاء لأنه بالتفضل أقرب ولا يشترط أن يسبقه عمل، وإنما يمكن أن يسبقه طلب أو دعاء كما مضى فى بيان شواهده... وكذلك أصحاب الشمال كانت أعمالهم سببًا فيما هم فيه، فلا يكتفون بعدم قراءة كتابهم، بل يجرهم الخزى العظيم إلى شدة الندم والتحسر، كما قال سبحانه: ﴿**وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه**﴾ (الحاقة ٢٥) أو يكون الهلاك هو أمنيتهم الوحيدة التى لا ملجأ لهم إلا إليها تخلصا من هذا الموقف كما قال تعالى ﴿**وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورًا**﴾ (الانشقاق ١٠).

وهول الموقف يناسبه أيضًا هذا التعبير (أوتى) دون أعطى، لأن الجانب الحسى ليس مقصودًا ثمة، ولا يكفى التعبير بالإعطاء لأنها ليست ذلة مقيدة بزمن... كما سبق فى بيان قوله تعالى ﴿حتى يعطوا الجزية...» فهذا شىء يسير بالنسبة لعذاب الآخرة لذا عبر معه بالإعطاء، أما هذا النكال وسوء العذاب فهو حياتهم الدائبة، وجزاؤهم الذى لا جزاء بعده...

ونخلص من ذلك كله إلى أن الكتاب يؤتى ولا يعطى؛ لأن الإيتاء أقوى من الإعطاء، وأساسه المعنى لا العين، ولا يقصد معنى الإعطاء ههنا وإن كان هو معنى الإيتاء وسبق القول بأنه: فَرْق بين أن يكون الشىء معنى الشىء وبأن يكون فى الشىءُ الشىءَ على الإطلاق، وتبرز هذه الفروق خلال الدراسة كما نراها...

* * *

أما التعبير بـ (أوتى) مع غير الكتاب فيأتى لأغراض أخرى تتجلى فيما يلى:

١- الإقرار بالفضل، قال تعالى ﴿**وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين**﴾(النمل ١٦).

٢- التمكين فى الأرض، قال تعالى حكاية عن هدهد سليمان ﴿... **إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم**﴾

(النمل ٢٣).

٣- بيان الإعراض والجحود، قال تعالى ﴿**وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته...**﴾ (الأنعام ١٢٤) ، وينظر القصص ٤٨.

٤- الإقرار بالإيمان، قال تعالى ﴿**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم...**﴾ (البقرة ١٣٦) وينظر آل عمران ٨٤.

٥- التعالى والتفاخر ونسيان الحق، قال تعالى حكاية عن قارون ﴿**قال إنما أوتيته على علم عندى...**﴾ (القصص ٧٨، ينظر الزمر ٤٩.

٦- تمنى نعم الدنيا: قال تعالى ﴿**قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم**﴾ (القصص ٧٩).

وكذلك التعبير بـ (آتينا) يأتى مع غير الكتاب وله أغراضه التى تناسب مراده ونقف أولًا مع:

«إيتاء الآيات»

وهى البراهين والحجج القاطعة الدالة على صدق الأنبياء، وهى شاملة للحسى والمعنوى، لذلك يعبر معها بالإيتاء دون الإعطاء، لأن الحسية منها ليست هى المرادة فى حد ذاتها، وإنما ما يترتب عليها من فعل أو أثر...

وتأتى أيضا فى معرض: التسلية لرسول الله- صلى الله عليه وسلم-

والتثبيت للمؤمنين، والتحذير من مماثلة الجاحدين، وبيانه كما يلى:

قال تعالى ﴿**ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورًا**﴾ (الإسراء ١٠١).

التسلية من الله لرسوله تسكين ومودة، كأنه يقول له: ليس غريبا أو بديعا ما يفعله قومك، فهؤلاء قوم موسى... وهذه الآية متآزرة بسياقٍ طويل قبلها حين قالوا لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- «لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرًا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا...» الآيات.

فأراد الحق أن يكشف له أمرهم فسلاه بما سبق من أمثالهم، فكان فى طليعة ذلك الاتهام بما يتهمونك به «فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورًا» فما هى إلا مطالب جحود وعناد لا تؤدى إلى الإيمان...

ولما كان ذلك تثبيتا من الله لرسوله وكان هذا أمرًا معنويا عظيما عبر معه بلفظ الإيتاء مسندًا إلى ضمير العظمة والجلالة تعظيمًا لهذا الشأن كله...

وكذلك يأتى التعبير بالإيتاء مع الآيات تحذيرًا من تبديل نعم الله سبحانه:

قال تعالى ﴿**سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب**﴾ (البقرة ٢١١).

فهذا التعبير دليل على أن النعم كانت تنسال عليهم، ومع ذلك كانوا يبدلون نعمة الله كفرًا، ويقابلونها بالجحود، وهذا تحذير من هذا المسلك المتأصل فيهم.

ولما كان التحذير والتسلية ونحو ذلك من المعانى التى برزت فى معرض الإيتاء عناصر بناء وتقويم للحياة عُبر معها بما يناسب دقة مسلكها...[٣٧]

---

(٣٧) ينظر من قبيل هذا والذى قبله: الإسراء ٥٩، الأعراف ١٧٥، الحجر ٨١، الدخان ٣٣.

أما إيتاء الحجة وهى من آيات الله لأنبيائه أيضا فى قوله تعالى ﴿**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم**﴾ (الأنعام ٨٣) فيقصد بها معنى الإرشاد والتوجيه، قال الزمخشرى «ومعنى (آتيناها): أرشدناه إليها ووفقناه لها»[٣٨]، فخرج الإيتاء هنا عن معناه المباشر إلى معنى الإرشاد والتوجيه والإلهام، فإيتاء الحجة إلهامه إياها، وإلقاء ما يعبر عنها فى نفسه، وهو فضل من الله على إبراهيم إذ نصره على مناظريه..[٣٩]

ومن هذا القبيل فى شأن سيدنا إبراهيم أيضا قوله تعالى ﴿**ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين**﴾ (الأنبياء ٥١) أى ألهمه الحجه فى صغره... ويجرى فى ذلك أيضا:

«إيتاء العلم والحكمة والحُكم»

اقترن الحكم بالعلم مع الإيتاء فى أربعة مواطن من كتاب الله، وذلك لما بينهما من ترابط، قال الإسكافى «والحكم هو الفصل بين المتحاكمين المبنى على العلم لأنه يكون بحسب ما يدعو إليه»[٤٠] وكل شواهده تشير إلى علو الشأن وارتفاع المنزلة وفيها معنى الاصطفاء أيضا، وبيان ذلك كما يلى:

قال تعالى فى شأن سيدنا يوسف- عليه السلام- ﴿**ولما بلغ أشده آتيناه حكمًا وعلمًا**﴾ (يوسف ٢٢) وفى شأن سيدنا موسى- عليه السلام- ﴿**ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما**﴾ (القصص ١٤) زاد هنا (واستوى) لأن سيدنا يوسف- عليه السلام- أُوحى إليه وهو فى البئر، بدليل قوله تعالى ﴿**...وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون**﴾ (يوسف ١٥) ولم يكن قد بلغ الأربعين سنة التى هى مرحلة الاستواء، أما مرحلة الأشد فهى أدنى من ذلك،

---

(٣٨) الكشاف ٢/ ٣٣.

(٣٩) ينظر التحرير والتنوير ٧/ ٣٣٥.

(٤٠) درة التنزيل وغرة التأويل ٢٤٠ دار الآفاق.

وأما سيدنا موسى فأوحى إليه بعد الأربعين سنة، وقوله و (استوى) إشارة إلى تلك الزيادة(٤١).

أما الحُكم فقيل هو: الفهم والعلم(٤٢)، وقيل هو النبوة، والعلم: علم الدين(٤٣)، وفسرهما أبو حيان بالنبوة(٤٤)، وهذا هو الأفضل؛ لأنهما من خصائص النبوة، ولذا جاءت كل شواهد اجتماعهما بالتنوين «حكمًا وعلمًا» مما يدل على بلوغهما مرحلة لا تبارى، وتلك مرحلة النبوة، وهذه يعبر معها بالإيتاء دون الإعطاء؛ لأنها ليست شيئا محسوسًا... بل هى أمور ينزلها الله على قلب عبده، فيصير الحكم بها حكم الله على لسان عباده...

وكذلك الشأن فى قوله تعالى «ولوطًا آتيناه حكما وعلما» وقوله تعالى ﴿**ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما**﴾ (الأنبياء ٧٤، ٧٩)

ولم يأت (الحُكم) وحده مع الإيتاء إلا فى قوله تعالى ﴿**يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا**﴾ (مريم ١٢).

قيل: الحكم هنا: النبوة؛ لأن الله أحكم عقله فى صباه، وأوحى إليه(٤٥).

أما (الحكمة) فجاءت فى باب الإيتاء وحدها، وجاءت مع الكتاب، ومع الملك: فالأول قوله تعالى ﴿**يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا**﴾ (البقرة ٢٦٩).

والحكمة هنا هى: التوفيق للعلم والعمل به، والحكيم عند الله هو العالم(٤٦)، والعلم هو أفضل خصائص الحياة، لذلك قال «فقد أوتى خيرًا

(٤١) ينظر السابق ذاته والبرهان فى توجيه متشابه القرآن للكرمانى ص١١١ تحقيق عبد القادر عطا.

(٤٢) الأشباه والنظائر... لمقاتل بن سليمان البلخى ١١٢ ت د/ عبد الله شحاته.

(٤٣) ينظر تفسير الرازى ١٨/ ١١٤.

(٤٤) ينظر البحر المحيط ٥/ ٢٩٢.

(٤٥) الكشاف ٢/ ٥٠٤.

(٤٦) السابق ١/ ٣٩٦.

كثيرًا»، «والخير الكثير منجر إليه من سداد الرأى والهدى الإلٰهى، ومن تفاريع قواعد الحكمة التى تعصم من الوقوع فى الغلط والضلال بمقدار التوغل فى فهمها واستحضار مهمها»[٤٧] فلما كان هذا شأن الحكمة وأنها تبث هذا الخير العميم أوثر التعبير بالإيتاء معها موافقة للمعانى؛ لأن الإيتاء يحقق معنى العظمة والسهولة والسيولة فى العطاء، وكذلك الشأن فى قوله تعالى ﴿**ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله...**﴾ (لقمان ١٢) أما قوله تعالى فى شأن سيدنا داود- عليه السلام ﴿**وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب**﴾ (ص ٢٠).

فالحكمة هى النبوة وكمال العلم واتقان العمل، وقيل الزبور وعلم الشرائع وفصل الخطاب أى تبينه..[٤٨]

وهذا كله فضل واصطفاء وتكريم من الله سبحانه، ودليل ذلك: الإسناد إلى ضمير العظمة (آتينا)، والتعريف فى (الحكمة) «يشير إلى كمالها بحسب ما تحتمله قوة العبيد، لأنها قوة تجمع أمرين: العلم المطابق، وفعل العدل وهو العمل على وفق العلم...»[٤٩] ومعنى الإيتاء هو المناسب لكل ذلك تمام المناسبة.

أما الكتاب والحكمة والكتاب والحكم، فسبق الحديث عنهما فى بيان شواهد إيتاء الكتاب، ويبقى: إيتاء الحكمة مع الملك، ولكن نلحظ أولًا: أن الملك حين يأتى وحده يكون لإيتائه غرض يختلف عنه حين تقرن به الحكمة، فيؤتى وحده:

١- اختبارًا وابتلاء:

قال تعالى ﴿**ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك...**﴾ (البقرة ٢٥٨) فالضمير فى (آتاه) عائد إلى الكافر الذى حاج إبراهيم فى ربه... وهذا ضرب من امتحانه الذى يمتحن به خلقه، وهو أعلم بوجه

---

(٤٧) التحرير والتنوير ١٣/ ٦٤.

(٤٨) ينظر الكشاف ٣/ ٣٦٥ وروح المعانى ٢٣/ ١٧٧.

(٤٩) نظم الدرر... للبقاعى ٤/ ٩٤.

الحكمة فيه[٥٠].

وذاك الملك هو الذى أورثه البطر ودفعه إلى الحجاج فوضع الكفر موضع الشكر فعكس ما كان يجب عليه[٥١]، لذا كانت عاقبته (فبهت الذى كفر...) أى انقطع وسكت متحيرًا وقد غلبته الحجة، وهذا لم يُقدِّم للملك شيئا حتى يؤتيه الله إياه، ومن هنا يتحقق أن الإيتاء لا يشترط أن يسبقه عمل، وأن التصرف فيه يثبت فيما لم يكن متعلقا بالشريعة ومسائل الإعجاز...

أما ما كان اختبارًا لعامة خلقه فإن يبيح التصرف فيه، كهذه الآية، ولذلك جاء المُلك معرفا ليوحى بأمرين:

الأول: الإشارة إلى كماله بالنسبة إلى الآدميين.

الثانى: الإشعار بأنه فتنة وابتلاء على من أوتيه[٥٢]، ولما كان هذا أمرًا عظيمًا بالنسبة له والمراد به اختبار بواطنه وتبيان حقائقه عبر بالإيتاء. وقد يعرف الملك أيضا ويعبر معه بالإيتاء:

٢- تعميمًا للعطاء:

قال تعالى ﴿**قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء...**﴾ (آل عمران ٢٦) أى سواء على سبيل الاختبار أو على سبيل الاصطفاء... ويوازى مراد التعريف هنا معنى الإسناد لضمير اسم الجلالة فى قوله تعالى: **والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ (البقرة ٢٤٧) فهذا وإن كان اصطفاء كما جاء فى نص الآية ﴿إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء﴾** إلا أنه لا يمنع أن يكون ابتلاء...، ولكن انظر إليه حين يكون:

---

(٥٠) ينظر معانى القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ٣٤٠.

(٥١) ينظر الكشاف ١/ ٣٨٨.

(٥٢) ينظر نضم الدرر ٤/ ٤٩.

٣- إقرارًا بالفضل:

قال تعالى حكاية عن سيدنا يوسف- عليه السلام- ﴿**رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين**﴾ (يوسف ١٠١)

فالتعبير بـ (من) هنا (من الملك) يشعر بتواضعه وإقراره بأن ملك الدنيا قليل وحقير بجانب ملك الله سبحانه... والتعبير بـ (آتيتنى) يشعر بعظمة هذا القليل ما دام من عند الله تعالى...

هذا فى إيتاء الملك دون الحكمة، أما حين يصطحبان فى عطاء الله سبحانه فإن ذلك يكون تهذيبا للمك من نوازع الهوى، ويكون هذا اجتباء واصطفاء:

قال تعالى ﴿**وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء**﴾ (البقرة ٢٥١)، فهذا ملك، وتعريفه أيضا يوحى بكماله بالنسبة إلى البشر، ولكنه ليس هو الذى يورث صاحبه بطرًا كما حدث مع النمروذ، بل هو الملك الذى يدل على عظمة الاصطفاء ومن ثم صحبته الحكمة (تخليصًا له مما يلحقه بفقدها من اعتداء الحدود، وداود أول من جمع له بين الملك والنبوة)[٥٣]، وقدم الملك ليبين كيفية الترقى إلى المراتب العالية..[٥٤].

وهذه أغراض التعبير بالإيتاء مع الملك والحكمة، ونقف بعد ذلك مع بيان:

* * *

[إيتـاء العلـم]

الغالب فيه هو التعبير بـ (أوتوا) بالبناء للمفعول، ولكن دلالة هذا التعبير تختلف هنا عما سبق بيانه فى التعبير بها مع (الذين أوتوا الكتاب)، فهؤلاء لم

---

(٥٣) ينظر نظم الدرر ٣/ ٤٣٨.

(٥٤) ينظر تفسير الرازى ٦/ ٢٠٤.

يعملوا بالكتاب ولم يقبلوا ما فيه، لأن المراد بهم- كما سبق- الذين نبذوه، واشتروا به ثمنا قليلا وتفرقوا واختلفوا... إلخ. فلم ينتفعوا به... أما أصحاب العلم فعلموا الحق وعملوا به، ولم أقف على أرقى مما ذكره البقاعى فى بيان سر التعبير به مع العلم حين قال فى بيان قوله تعالى: ﴿**قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين**﴾ (النحل ٢٧) «ولما كان العلم شرفًا للعالم مطلقا بنى للمفعول قوله (أوتوا العلم) أى انتفعوا به فى سلوك سبيل النجاة من الأنبياء- عليهم السلام- ومن أطاعهم من أممهم، إشارة إلى أن الهالك يصح سلب العلم عنه وإن كان أعلم الناس»[٥٥] معنى ذلك أنه لا يسمى علما إلا إذا كان عاملا به، لذلك قال سبحانه: ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾ (المجادلة ١١).

قال البقاعى أيضا «ولما كان العلم نفسه كافيا فى الإعلاء من غير نظر إلى مؤت معين بنى للمفعول قوله (أوتوا العلم)»[٥٦].

فالقصد حينئذ هو مثول العلم فيهم وعملهم به هو الذى نسبهم إليه وشرفهم بشرفه، وهذا هو مناط البيان، كأنه يقول: إذا كان هذا وجه الإبهام فما بالك إذا كان المؤتى هو الله سبحانه؟!

وكل هذه الشواهد تجرى فى بيان الإشادة بهم وبيان منزلتهم[٥٧]، سوى قوله تعالى ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾ (الإسراء ٨٥).

فإنه لبيان قلة علم البشر بجانب علم الله سبحانه.

وقوله تعالى على لسان سيدنا سليمان- عليه السلام- ﴿**وأوتينا العلم من قبلها**

---

(٥٥) نظم الدرر ١١/ ١٤٣.

(٥٦) السابق ١١/ ١٤٣.

(٥٧) وينظر الآيات التالية: الإسراء ١٠٧، الحج ٥٤، القصص ٨٠، العنكبوت ٤٩، سبأ ٦، محمد ١٦، الروم ٥٦.

وكنا مسلمين﴾ (النمل ٤٢) فإنه فى باب الإقرار بفضل الله ونعمة الإسلام.

ولم يختلف عن هذا الأصل (البناء للمفعول مع العلم) إلا قوله تعالى ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ (النمل ١٥) حيث عَبر هنا بـ (آتينا) بضمير العظمة والبناء للمعلوم، للتشهير بأن نعمة العلم هى أجل نعم الله على عباده، و «جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار»[٥٨] حينئذ، أما حين عُبر بـ (أوتوا) فكانت كونية العلم فيهم هى المقصودة، تكريما لهم وتشريفا.

* * *

ومن خلال ما سبق نلحظ كثرة أغراض التعبير بـ (آتينا) عنها بـ (أوتوا)، ففيها فوق ما سبق من بيان شواهد إيتاء الكتاب وغيرها ما يلى:

١- بيان رحمة الله والرغبة إليه:

قال تعالى ﴿وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ (الأنبياء ٨٣، ٨٤).

يتجلى من ذلك أن قوة النعم ضعف قوة الابتلاء، وهذه رحمة الله بمن لجأ إليه، وتذكيره للعابدين.

٢- بيان التمكين فى الأرض ومعرفة أسبابه:

قال تعالى ﴿ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا...﴾ (الكهف ٨٣، ٨٤).

أى معرفة وذريعة يتوصل بها...[٥٩]، حيث أعطاه القدرة على الصلاح ودفع الضر كما هو واضح من سياق الآيات، ومثل هذا يكون إيتاءً لعموم أثره

---

(٥٨) فى ظلال القرآن ٥/ ٢٦٣٣.

(٥٩) ينظر المفردات (سبب).

وبروز نفعه... وهذا باب كبير من أبواب فضل الله ونعمه يجرى فيه أيضا نحو قوله تعالى ﴿ولقد أتينا داود منا فضلا..﴾ (سبأ ١٠).

٣- بيان نعم الله والرغبة فيها:

قال تعالى إخبارًا عن سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿**وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين**﴾ (النحل ١٢٢).

والحسنة هنا: هى «الثناء الحسن فى كل أهل الأديان»[٦٠]، وهذه نعمة كبيرة باقية مادامت الحياة، أما الرغبة فى النعمة فكقوله تعالى ﴿...**ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**﴾

(البقرة ٢٠١).

٤- بيان الإبتلاء والكفر بالنعمة...

قال تعالى حكاية عن قارون ﴿... **وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة...**﴾ (القصص ٧٦) كان ذلك ابتلاء واختبارًا له، فأورثه البطر والهلاك. وقال تعالى ﴿**ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها...**﴾ (السجدة ١٣)، أى ولكنه سبحانه ترك لهم اختيار طريق النجاة أو طريق الهلاك بعد أن بينهما، وأرشد إلى أفضلهما..[٦١]

[إيتـــاء الفضـــل]

هذا عطاء من الله سبحانه تتفاضل به منازل عباده، ويكون ذلك على سبيل الرفعة أو الابتلاء، أو التحذير من الكتمان والبخل، أو الترغيب فى الرضا بالعطاء، ولم يصلح التعبير بلفظ الإعطاء هنا، لأنها معان عظيمة الشأن، وفضل الله ليس ملكا لأحد فلا يحل كتمانه أو البخل به، ويأتى فيما يتعلق بالدنيا والآخرة، ومن ثم لا يمكن تقديره بأنه قليل أو كثير... فهذا شأن الإعطاء لأنه

---

(٦٠) ينظر الجلالين على هامش الفتوحات الإلهية ٢/ ٦٠٤.

(٦١) ينظر النحل ٥٣: ٥٥، الأعراف ١٨٩، ١٩٠، العنكبوت ٦٦، الروم ٣٤.

كما قال ابن فارس (يدل على أخذ ومناولة لا يخرج الباب عنهما)[٦٢] ومن هنا جاء التعبير معه بلفظ الإيتاء الدال على اليسر والسهولة والحسن، ونلحظ أن إيتاء الفضل يكون على سبيل الرفعة وبيان المنزلة:

وهذا ما نجده فى قوله تعالى ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله..**﴾ (آل عمران ١٦٩، ١٧٠) لما كان هذا شيئا عظيما غير محدد أو مقيد قال (فرحين) أى دائمى الفرح بهذا العطاء الذى لا يغنى،، لأن مرحلة الفناء قد انقضت...

وكذلك يكون تعظيما للعطية وتبغيضا من كتمانها أو البخل بها، وذلك منه كثير: **قال تعالى ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾** (آل عمران ١٨٠) وقال تعالى ﴿**ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا** به **وتولوا وهم معرضون...**﴾ الآيات (التوبة ٧٦) وينظر النساء ٣٦، ٣٧.

وكذلك يأتى الفضل مع الإيتاء فى الحث على الرضا بعطاء الله والرغبة فيه... قال تعالى ﴿**ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون**﴾[٦٣] (التوبة ٥٩) أى لكان خيرًا عظيمًا لهم فى الدنيا والآخرة، والفضل حين ينعم عن رضا الله سبحانه لا يكون خيره مقصورًا على زمن الدنيا بل يكون شاملا للدارين.

[إيتـــاء الرحمـــة]

تستعمل الرحمة فى القرآن الكريم لكثير من المعانى، ويختلف ذلك باختلاف السياق والمقام، ولكن حين يعبر معها بالإيتاء فإنه يقصد بها النبوة، أو الكرامة، أو الهداية بالمعرفة...،أو الثواب، وكلها أمور عظيمة تتناسب مع فضل

---

(٦٢) مقاييس اللغة ٤/ ٣٥٣ ت/ عبد السلام هارون ط ٤/ ١٩٧١ الحلبى.

(٦٣) وينظر آل عمران ٧٣، النساء ٥٤، والمائدة ٥٤، هود ٣، الحديد ٢١، ٢٩، الجمعة ٤.

الله ورحمته قال الراغب «الرحمة من الله إنعام وإفضال ومن الآدميين رقة وتعطف»(٦٤).

ومن باب الإنعام والإفضال إذعانا بالحجة قوله تعالى حكاية عن سيدنا نوح- عليه السلام- ﴿**قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون**﴾ (هود ٢٨).

وقوله تعالى حكاية عن سيدنا صالح ﴿**قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير**﴾ (هود ٦٣).

والرحمة هنا فى الآيتين- كما قال الفراء- «الرسالة وهى نعمة ورحمة»(٦٥) أى نعمة من الله على نبيه ورحمة لقومه...

ولكن الذى يلاحظ أن الرحمة أعقبت الإيتاء وانصب هو عليها فى الآية الأولى، وكأن الأمر بكونها من عند الله معلوم، بينما فصل بينهما فى الآية الثانية، وكان التركيز على أن الإيتاء من الله ثم بين نوعية هذا الإيتاء بأنه رحمة...

وتعليل الإسكافى فى ذلك: أن نظم الآيتين يجرى على شاكلة السياق قبله... غير أن الأفضل من ذلك أنهما خصوصيتان كما سبق تتناسب كل منهما مع مقامها فلما طالت محاجة نوح مع قومه واتهموا من اتبعه بأنهم أراذلهم، ونفوا أن يكون له فضل عليهم، ﴿**وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين**﴾ لما حدث ذلك كان قصده الأول: بيان أن هذا التكليف والإلزام به رحمة، ولذلك لن يكون منا إلزام لكم وأنتم لها كارهون، ثم بعد ذلك «وصف الرحمة بصفة

---

(٦٤) المفردات (رحم).

(٦٥) معانى القرآن ٢/ ١٢ تحقيق أ/ محمد على النجار- الدار المصرية للتأليف.

تدل على الاعتناء الربانى بها وبمن أوتيها»[٦٦] فقال: (من عنده).

أما سيدنا صالح فكان قصده «تقييد الإيتاء بأنه من الله مشيرًا إلى إيتاء خاص ذى عناية بالمؤتَى...[٦٧]» ويمكن القول بأنه: قدم (منه) أيضا لأنهم كانوا فى شك من دعوته حيث قالوا «وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب» فكان القصد الأول إثبات أن الإيتاء منه سبحانه وهذا أدل على نفى الشك وقطعه، ثم بيان نوعه بأنه رحمة...

وأيضا تقديم (رحمة) فى الأول وتأخير (من عنده) يدل على كثرة أدلته ووضوح براهينه لهم فهم يعلمون أنها من الله...

قال الحرالى «و«عند» فى لسان العرب لما ظهر» مستدلا على ذلك بقوله تعالى فى شأن سيدنا موسى والعبد الصالح ﴿**فوجدا عبدًا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما**﴾ (الكهف ٦٥).

ثم قال: «ولدن» لما بطن، فيكون المراد بالرحمة ما ظهر من كراماته، وبـ (العلم): الباطن الخفى المعلوم قطعا أنه خاص بحضرته سبحانه»[٦٨].

أما الرحمة فى قوله تعالى «**إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدًا**﴾ (الكهف ١٠).

فهى: الهداية بالمعرفة والصبر والرزق والأمن من الأعداء، وقولهم (من لدنك) يدل على عظمة تلك الرحمة [٦٩].. وهذا يدل على أسمى أنواع الطلب ويناسبه التعبير بالإيتاء بما فيه من سهولة فى العطاء لأنه من الله سبحانه.

وهى الثواب العظيم الجامع بين منزلتهم فى الدنيا ومستقرهم فى الآخرة، فى قوله تعالى ﴿**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من**

---

(٦٦) التحرير والتنوير ١٢/ ١١١.

(٦٧) السابق ذاته.

(٦٨) نظم الدر ١٢/ ١٠٦.

(٦٩) ينظر تفسير الرازى ٢١/ ٨٤.

رحمته، ويجعل لكم نورًا تمشون به...﴾ (الحديد ٢٨).

وعبر بـ (كفلين) هنا لبيان تكفله سبحانه بذلك فى الدنيا والآخرة مما يدل على الاعتناء بشأن من اتقى وآمن، قال الراغب «أراد النعمة المتوالية المتكفلة بكفايته»(٧٠).

ومن قبيل هذه الأمور العظيمة من الله سبحانه: إيتاء الخير، والحسنة والهدى، وكذا التقوى فى قوله تعالى ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**﴾ (محمد ١٧) وإيتاء الأجر وهو كثير ومنه قوله تعالى ﴿**ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين**﴾ (الأحزاب ٣١) وقوله تعالى ﴿**إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم**﴾ (محمد ٣٦).

وكلها أمور معنوية عظيمة جديرة بما يحويه معنى الإيتاء من سهولة وحسن.... ولولا أنها تجرى على شاكلة ما درسته لوقفت حيالها واحدًا تلو الآخر وهى بين يدى... ويكفى أن أشير بعد ذلك إلى لمحات أخرى فى باب:

[إيتـــاء الحقـــوق]

ويقصد به حقوق البشر بعضهم على بعض من الصدقة والزكاة وحقوق اليتامى، وحقوق النساء...

وليس التعبير بالإيتاء فى هذه الأمور بديعا عما سبق بيانه، ولكن الفرق أن هذه الحقوق بين العباد من تكاليف الحق سبحانه، والالتزام بها إلتزام بشرع الله- عز وجل- لذلك عُبر معها باللفظ القوى (الإيتاء) الذى يوائم أسَّ العبادة ومقصد التكاليف....

ورأس هذه الحقوق هو (المال) ولا ريب أن علاقته حميمة بالنفس البشرية فهى محبة له وراغبة فيه، ومن ثم لم يعبر معه ولا مع ما يتعلق به بلفظ الإعطاء

---

(٧٠) المفردات (كفل).

إلا إذا كان عن كره وقسر كما مضى فى بيان قوله تعالى ﴿**حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**﴾ أو عن طلب صريح أو غير صريح كما مضى...

أما إذا كان حقًا محددًا أو غير محدد كالزكاة والصدقات وليس نظير شىء ولا يشترط فيه الطلب فإنه يعبر معه بما هو أقوى؛ لأنه ليس المقصود منه مجرد مناولة وإيصال حتى يكون إعطاء، وإنما المراد به ما يتعلق بالقلوب من الرضا والسماحة وطيب النفس والاقتناع بأنه حق... فالمهم هو الجانب المعنوى، وهذه حقائق تقررها الشواهد:

قال تعالى ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة...** ﴾ (البقرة ١٧٧).

عطف إيتاء المال (وآتى المال) على الإيمان، وأساس الإيمان: ما وقر فى القلب وصدقه العمل، معنى ذلك: أن العمل دليل الإيمان، وليس هو الإيمان، وكلمة (آتى) تجمع الإيمان ودليله؛ لأن إيتاء المال صلة حسية ومعنوية، لذا أدرج تحت (البر) التى تجمع (خير الدنيا والآخرة...)[٧١].

وقيده بقوله (على حبه) لأنه إن كان عن غير طيب نفس لم يحصل المقصود منه قال تعالى ﴿يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى...﴾ الآية (البقرة ٢٦٤) فإن لم يكن عن رضا وطيب نفس لا يسمى إيتاء، وإنما يكون مجرد إعطاء أى إيصال ومناولة... وبذلك لم يتحقق الهدف المنشود...

وكذلك فى الآية ذاتها (وأقام الصلاة وآتى الزكاة) عطف إيتاء الزكاة على إقامة الصلاة لبيان أن الأولى دافع للثانية، وترغيب فى أدائها بالبواطن قبل

---

(٧١) ينظر لسان العرب (بر).

الظواهر. قال البقاعى «وفى الاقتصار على الإيتاء إشعار بأن إخراج المال على هذا الوجه لا يكون إلا مع الإخلاص)[٧٢] وبذلك يتحقق معنى الإيتاء، وأن الإعطاء فيه ليس مجرد إيصال... وإنما هو إيصال يستشعره القلب ويتناسب مع قدر العبادة والمحافظة على التكاليف الشرعية...

واقتران إيتاء الزكاة بإقامة الصلاة خير دليل على أن يكون الإعطاء على هذا الوجه الذى هو لب العبادة ومقصدها، وجاء ذلك الاقتران فى أربع وعشرين آية من كتاب الله، ليس عسيرًا جمعها وحصرها من المصحف أو المعجم، ويكفى ما أشرت إليه منها فإنها تجرى على نمطه...

وجعل الحق- سبحانه وتعالى- زكاة الزروع والثمار حقًا لها، وكأنها لا تثمر أو لا يكون فى إثمارها خير إلّا إذا أُدى حقها، فقال تعالى ﴿**وآتوا حقه يوم حصاده...**﴾ (الأنعام ١٤١)، وفى هذا تقوية للعزيمة على إيتاء الحقوق وقصده والاهتمام به يوم الحصاد [٧٣].

وكل هذه الأمور المعنوية العظيمة التى لا يناسبها سوى التعبير بالإيتاء تندرج تحت غرض الحث أو الترغيب فى أداء الحقوق وإقامة التكاليف كما يجب.

* * *

أما حق اليتامى فى قوله تعالى ﴿**وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبًا كبيرًا**﴾ (النساء ٢)

فعبر معه بلفظ الإيتاء دون الإعطاء لبيان أن المقصود من ذلك هو شدة الحرص على مال اليتيم والاهتمام به، ومحاولة تنميته؛ لأن فى لفظ (الإيتاء) معنى السهولة والسيولة والكثرة- كما سبق- والسُّنة بينت ذلك: فعن أنس-

---

(٧٢) نظم الدرر ٣/ ٧.

(٧٣) ينظر الكشاف ٢/ ٥٦.

رضى الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال «اتّجِروا فى أموال اليتامى لا تأكلها الزكاة»(٧٤).

وذلك حتى يصل إلى المرحلة التى يحسن فيها التصرف، ولو كان المراد هو مجرد إيصالها لهم لقيل: وأعطوا اليتامى أموالهم... ولكن قُصد صونها عن الضياع، لذلك قال تعالى ﴿**ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم...**﴾ أى لا تضموها إليها؛ لأن المال من أعظم أسباب الضلال والغواية.

قال تعالى حكاية عن سيدنا موسى- عليه السلام- ﴿**وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم**﴾ (يونس ٨٨).

ولم يقل أعطيت؛ لأن المراد ما وراء المال وما ينجم بسببه من فتنة وغواية....

* * *

«حقوق النساء»

عبر معها بالإيتاء أيضا؛ لأنها مواثيق قوية، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى ﴿**وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا**﴾ (النساء ٢٠، ٢١).

فليس كل المقصود من الصداق مجرد دفعه وإيصاله... وإنما الأهم من ذلك الطيب والإخلاص الذى يتحقق به هدفه من المودة والسكن والرحمة، والصداق بين ذلك ما هو إلا كبح لزمام النفس أن تتبع الهوى...

---

(٧٤) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد ٣/ ٦٧ كتاب الزكاة... وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده صحيح وذكره كنز العمال ١٥/ ١٧٧ وعزاه إلى الطبرانى أيضا.

وما كان هذا شأنه فهو إيتاء لأنه معنى جامع بين الحق والنفع... ولذلك سماه الحق- سبحانه وتعالى- أجرًا حين قال ﴿**فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة**﴾ وقال ﴿**فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف**﴾ (النساء ٢٤، ٢٥) وصيغة استفعل تدل على التمكن والتحقق. وعلل الإمام الرازى سر تسميته أجرًا بقوله «وإنما سمى المهر أجرًا لأنه بدل المنافع، وليس ببدل من الأعيان..»[٧٥].

وكذلك الشأن فى قوله تعالى ﴿**فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف...** ﴾ (الطلاق ٦)

والتراضى على الشىء والتسامح، والمعروف فيه، أفضل من الشىء فى حد ذاته... وقال تعالى ﴿**وآتوا النساء صدقاتهن نحلة**﴾ (**النساء ٤**)، أى هبة وعطية عن طيب نفس»[٧٦] وهذا ما يتوافق لفظه مع معنى الإيتاء ومراده...

* * *

وما ذكر من هذا القبيل دليل على ما لم يذكر، المهم أن الحقوق يعبر معها بالإيتاء تبيانا لعظمتها وإكبارًا لمنافعها، شأنها شأن العهود والمواثيق، سواء أكان ذلك على سبيل الحقيقة كهذه الأمور أم على سبيل التمثيل، كقوله تعالى ﴿**ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها...** ﴾ (إبراهيم ٢٥).

أى تثمر إثمارًا طيبا نافعا مأمولًا كذلك الكلمة الطيبة، وهذا يحقق معنى السيولة فى الإيتاء أيضا[٧٧]...

ويتجلى من الإيتاء أيضا:

---

(٧٥) تفسيره ١٠/ ٥٠.

(٧٦) ينظر معانى القرآن للفراء ١/ ٢٥٦- والكشاف ١/ ٤٩٨.

(٧٧) ينظر البقرة ٢٦٥.

١- معنى التمام والكمال:

قال تعالى ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا﴾ (الكهف ٣٣) فلما عبر بـ (آتت) قال (ولم تظلم) إشارة إلى عدم النقصان والمنع(٧٨)... وهذا ترغيب فى الوفاء بالحق على أكمل وجه...

٢- ومعنى الدهشة والعجب:

قال تعالى ﴿فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم﴾ (يوسف ٣١).

فلو كان المقصود هو إعطاء السكين ومناولتها... لعبر بلفظ الإعطاء، ولكنه عبر بالإيتاء لأن المراد ما يترتب على ذلك من الأمر الذى يثير الاستغراب حيث تسببت دهشتهن فى تبديل تقطيع اللحم أو الفاكهة بتقطيع الأيدى أى تجريحها، وسبق ذلك بالإعظام مما يقوى هذا العجب (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن...).

* * *

نخلص من كل ذلك إلى أن الإيتاء يتعلق بالمعانى وهى أساسه، والإعطاء يتعلق بالأعيان وهى مقصده....

وتلك هى معانى الإيتاء تجلى من دراستها أمران:

الأول: الفرق بين عطاء المادتين (آتى- وأعطى) وسر التعبير بهذه هنا وتلك هناك...

الثانى: أغراض التعبير بالإيتاء على اختلاف شواهده، وتفرقت بين ثناياها

---

(٧٨) ينظر تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى ص ١٦٥ تحقيق د/ على محمود مقلد دار الآفاق.

بعض أغراض التعبير بالإعطاء لذا رأيت أن أختم البحث بإجمال أغراض التعبير بالإعطاء ومادته فى القرآن الكريم ليكمل المراد من أغراض التعبير بالمادتين كما تجلى الفرق بينهما، وها هى ذى إجمالاً بعد أن سبقت دراستها فى الموازنة بين شواهد المادتين:

* * *

[إجمال أغراض التعبير بالإعطاء أو مادته]

يأتى التعبير بمادة الإعطاء فى القرآن لبيان:

١- الذلة والهوان:

قال تعالى ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**﴾ (التوبة ٢٩) وسبق بيانها...

٢- شدة الحرص على الدنيا وتضييع الدين:

قال تعالى ﴿**ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون**﴾ (التوبة ٥٨).

وذلك لأنه لا يلمز فى العطية ولاسيما مع رسول الله- صلى الله عليه وسلم- إلا شديد الحرص على الدنيا وإن ضاع الدين، ومن هنا نلحظ التعبير بالإعطاء فيه حيث قال عقبها:

«ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون» أى لكان خيرًا لهم، واللمز يتعلق أمره بالدنيا، أما الرضا فيتعلق بالدين وصلاح الدنيا، وهذا هو مناط الفرق.

٣- دوام النعيم فى الآخرة للذين سعدوا:

قال تعالى ﴿**...وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاءً غير مجذوذ**﴾ (هود ١٠٨) وسبق بيانه.

٤- عموم عطاء الله للمؤمن والكافر:

ولكن كل له زمنه فالكافر ليس له فى الآخرة نصيب ولا خلاق، أما المؤمن فيثمر عطاؤه ويحصد يوم الحصاد.

قال تعالى ﴿... **كلًا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورًا**﴾ (الإسراء ٢٠).

٥- بيان النعم الحسية المتجددة بتجدد الزمن:

قال تعالى ﴿**قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾ (طه ٥٠).

أى تركيبه، وهيئته التى تليق به على اختلاف الكائنات...

قال الزركشى فى هذه الآية «لأن من الأشياء ما له وجود فى زمان واحد بلفظ الإعطاء»(٧٩) وهذا ما سبق بيانه فى أن الإعطاء يكون محددًا بزمن واحد إما فى الدنيا وإما فى الآخرة ولا يكون معنى العموم إلا فى الإيتاء لأنه يتحقق فى الدنيا بعظمته ويبقى ثوابه وأجره... وفى هذه الآية تكمن النعم المعنوية فى قوله (ثم هدى).

٦- التفضيل والتخصيص:

كما سبق فى بيان آية سيدنا سليمان ﴿... **فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الأصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب**﴾ (ص ٢٩) وهذا فيه معنى التفويض، وقوله تعالى ﴿**إنا أعطيناك الكوثر...**﴾ (الكوثر ١) وفيه معنى المشاركة...

وقوله تعالى ﴿**إن للمتقين مفازًا..... جزاءً من ربك عطاء حسابا**﴾ (النبأ ٣١: ٣٦) وهذا نظير جهنم بحميمها وغَسَّاقِها للطاغين...

٧- الشح والبخل:

قال تعالى : ﴿**أفرأيت الذى تولى وأعطى قليلا وأكدى ...**﴾ (النجم ٣٣، ٣٤).

٨- الاجتراء على حدود الله عند الابتلاء:

---

(٧٩) البرهان ٤/ ٨٦.

قال تعالى ﴿**إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر**﴾ (القمر ٢٧: ٢٩) أى تناول ما لا يحق تناوله بسبب هذا الابتلاء الذى اختبرهم الله به، قال الأزهرى «والتعاطى: تناول ما لا يجوز تناوله، يقال: تعاطى فلان ظلمك، وفى القرآن ﴿فتعاطى فعقر﴾ أى فتعاطى الشقى عقر الناقة فبلغ ما أراد»(٨٠) وهو يؤدى معنى الافتعال والاجتراء ويكون غالبا فى الأمور القبيحة كما هنا.

٩- الترغيب فى العطاء والترهيب من البخل:

قال تعالى ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾ (الليل ٥: ١٠)

١٠- الوعد بالبشارة:

قال تعالى ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى...﴾ (الضحى ٥)

أى أنه سبحانه وتعالى لما قال: ﴿والآخرة خير لك من الأولى﴾ بين بهذه الآية مقدار هذا التفاوت، وهو أنه يرضى غاية الرضا. أو أنه يعطيه فى الآخرة ما لا تتسع له الدنيا(٨١)

* * *

ومن كل ذلك تجلى أن الإعطاء لم يقو قوة الإيتاء، وفرق كبير بينه فى حد ذاته، وبينه حين يكون معنىً للإيتاء، لأنه يجرى فى الأعيان، والإيتاء يجرى فى المعانى، والمعانى أعم وأعظم، ثم إنه يأتى فى المعانى القوية المتعلقة بالتكاليف-

---

(٨٠) تهذيب اللغة (عطو).

(٨١) ينظر تفسير الرازى ٣١/ ٢١٣.

كما سبق- ولذا كان إلزامًا لا تفويض فيه، ولا يشترط أن يسبقه طلب، وليس هو نظير أمرٍ ما، كما أنه يعبر به فى ربط الماضى بالحاضر، وتواصل الشرائع واتحاد طرائق الأمم أو تقاربها عند استقبال الرسل... ولا يقال فى شىء منه إنه قليل، هذا بالإضافة إلى الأغراض التى جاء فى معرضها وسبق تفصيلها...

أما الإعطاء الذى لا يكون معنىً للإيتاء فإنه يكون فى الأمور الحسية عظيمة كانت أو قليلة حسنة أو قبيحةو كما يكون مددًا وقد يسبق بطلب تصريحا أو تلميحا يوحى به السياق والمعنى... وقد يكون نظير أمرٍ ما، وقد يكون جائزة أو تعويضًا، أو فيه تفويض أو مشاركة... بالإضافة إلى أغراضه السابقة.

وبهذا وغيره مما تناثر خلال الدراسة وجادت به الأساليب- فى نظرنا- يتجلى ما قصدنا إليه من فروق بلاغية بين عطاء المادتين وسر التعبير بكل منهما فى موطنه.

والله ولى التوفيق

* * *

من أهم المصادر والمراجع

١- أساس البلاغة للعلامة الزمخشرى.
٢- أسباب النزول: الواحدى- السيوطى.
٣- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى.
٤- الأشباه والنظائر لمقاتل بن سليمان البلخى تحقيق د/ عبد الله شحاته.
٥- البرهان فى علوم القرآن للزركشى دار التراث.
٦- البرهان فى توجيه متشابه القرآن للكرمانى تحقيق عبد القادر عطا.
٧- البحر المحيط لأبى حيان.
٨- التهذيب للأزهرى.
٩- تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى تحقيق د/ على محمود مقلد، دار الآفاق.
١٠- التفسير الكبير: فخر الدين الرازى دار الفكر.
١١- تفسير ابن كثير.
١٢- تفسير الطبرى.
١٣- التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن عاشور الدار التونسية.
١٤- الجلالين على هامش الفتوحات.
١٥- الخصائص لابن جنى الطبعة الثالثة- الهيئة المصرية العامة للكتاب.
١٦- دلائل الإعجاز تحقيق الشيخ محمود شاكر.
١٧- درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافى- دار الآفاق.
١٨- روح المعانى للآلوسى.
١٩- الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى.
٢٠- الفتوحات الإلهية.

٢١- فى ظلال القرآن/ الشيخ سيد قطب.
٢٢- القاموس المحيط للفيروز أبادى.
٢٣- الكشاف للزمخشرى.
٢٤- الكشف عن وجوه القراءات السبع..... لمكى بن أبى طالب القيسى تحقيق د/ محى الدين رمضان.
٢٥- لسان العرب لابن منظور.
٢٦- المفردات للراغب الأصفهانى.
٢٧- معانى القرآن وإعرابه للزجاج.
٢٨- معانى القرآن للفراء.
٢٩- مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق د/ عبد السلام هارون.
٣٠- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم- محمد فؤاد عبد الباقى.
٣١- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة.

* * *